الفصل الثاني
التعريف بالمذاهب الفكرية
ولماذا سُمِّيت فكريَّة ؟

قبل الخوض في دراسة المذاهب الفكرية والاتجاهات المضطربة لابد من معرفة المقصود بالمذاهب الفكرية وسبب تسميتها بهذا الاسم ولماذا نُسبت إلى الفكر ؟ كما سنفصله فيما يلي :

معنى المذاهب :

المذاهب جمع مذهب وهو ما يذهب إليه الشخص ويعتقده صواباً ويدين به سواء أكان ما يذهب إليه صواباً في نفس الأمر أو كان خطأ ، ومعنى هذا أن المذاهب تختلف باختلاف مصادرها وباختلاف مفاهيم الناس لها من دينية وغير دينية وما يتبع ذلك من اختلاف في فنونها من فقهية أو لغوية أو رياضية أو علوم عقلية تجريبية أو فلسفات أو غير ذلك . ويجب معرفة أنه لا يخلو إنسان أو مجتمع من مذهب يسير بموجبه مهما اختلفت الحضارة أو العقلية للشخص أو المجتمع .

تمشياً مع سنة الحياة ومع ما جُبل عليه الإنسان الذي ميَّزه اللَّه عن بقية الحيوانات بالعقل والتفكير وحب التنظيم والسيطرة على ما حوله وابتكار المناهج التي يسير عليها إلى آخر الغرائز التي امتاز بها الإنسان العاقل المفكر عن غيره من سكان هذه المعمورة [1] .

---

(١) قد لا يشارك الإنسان في هذه الصفات من سكان الأرض غير الجن . واللَّه أعلم .

وقيل لها مذاهب فكرية :

نسبة إلى الفكر الذي تميز به الإنسان عن بقية المخلوقات التي تشاركه الوجود في الأرض ، ويُعرِّفه بعضهم بأنه صنعة العقل الإنساني ومسرح نشاطه الذهني وعطاؤه الفكري فيما يعرض له من قضايا الوجود والحياة[2] سواء أكان صواباً أو خطأً .

وقد نُسبت المذاهب إلى الفكر لأنها جاءت من ذلك المصدر وهو الفكر أي أنها لم تستند في وجودها على الوحي الإلهي أصلاً أو استعانت به وبما توصل إليه الفكر من نتائج جاءته إما عن طريق الوحي أو التجارب أو أقوال من سبق أو أفعالهم ، وقد تكون تلك النتائج صحيحة وقد تكون خاطئة في نفس الأمر .

وأما بالنسبة لاستنادها إلى الوحي فقد لا يكون ذلك بل ربما كانت تلك الأفكار محاربة له فتُنسب إلى مؤسسيها فيقال الفكر الماركسي أو الفكر الفلسفي أو الفكر اليوناني أو الفكر الصوفي أو غير ذلك من الأفكار التي تُنسب إما لشخصيات مؤسسيها أو لبلدانهم أو لاتجاهاتهم وغير ذلك . ومن هنا يتضح أنه إذا أطلق لفظ الفكر فإن المراد به هو ما يصدر عن العقل من شتَّى المفاهيم والمبتكرات الدينية أو الدنيوية .

ومن هنا سُميت مذاهب فكرية نسبةً إلى المذهب الذي تذهب إليه كل طائفة ونسبةً كذلك إلى أفكارها التي تعتنقها مبتكرة لها أو مقلدة ، وقد انتشرت في العالم أفكار عديدة باطلة سندرس إن شاء اللّه أهمها ونبين مفاهيم تلك الأفكار عند أهلها وصفاتها التي قامت عليها والرد عليها وإيضاح الحق في كل ذلك بعون اللّه تعالى مع الإشارة في المقابل إلى الفكر الصحيح عند المسلمين وبيان معينه الفياض .

---

(١) الاتجاهات الفكرية المعاصرة ، ص ١١ .

أولا : تاريخ نشأة المذاهب الفكرية فى أوربا وتطور هذه النشأة

١ ــ عصر سلطة الكنيسة :

كانت أوربا فى القرون الوسطى تعيش فى جويسوده الجهل والخرافة . . سيطرت فيه الكنيسة على كل اتجاه ، وأصبحت بمثابة الدولة ولها محاكمها الخاصة ، وسجونها العديدة ، وفرضت على الناس خضوعا مذلا لرجال الدين ، واحتكرت الوساطة بين الناس وبين الله فى مفهومها . . وقصرت حق تفسير وفهم نصوص الكتاب المقدس لديهم على البابا وأعضاء مجلسه ، وحظرت على أى شخص آخر خارج جهاز الكهنوت محاولة تفسيره أو مناقشته وجعلت الاعتراف بالخطأ وصكوك الغفران من مراسم العبادة ، فلا يملك انسان أن يتصل بالله الا عن طريق الكاهن ، ولا تقبل توبته إلا إذا جلس أمامه على كرسى الإعتراف وتحول الدين إلى مجموعة من الأسرار والرموز التى لايفهمها إلا رجال الدين ، وعلى الناس أن يخضعوا لهم خضوعا أعمى . . ورجال الدين يقومون عنهم بكل شىء ـ التوبة والاستغفار المهم أن يدفعوا هم للكنيسة الأموال .

وبالجملة فقد كان للبابا والكنيسة فى تلك العصور نفوذ خاص عبر البابا غريغورس بقوله «إن الكنيسة هى صاحبة السيادة فى العالم كله ، تستمد نفوذها من الله مباشرة وتمد هى ملوك الأرض أمراءها بالنفوذ ، وان البابا له مركز قوي فى العالم فهو الذى يولى الأساقفة ، ويخلعهم ، وله الحق فى خلع الأباطرة لأنه سيدهم الذى لايسأل عما يفعل وهم يسألون»[١] .

كما فرضت الكنيسة على الناس نظام السخرة والعشور . . وذلك بأن يعملوا فى الأرض التى تملكها الكنيسة يوما كل أسبوع بدون أجر ، وأن يدفعوا عشر أموالهم هبة لها ويجمع كل ذلك ليدخل فى جيوب رجال الدين يتمتعون به ليكون تحت تصرفهم .

ولذلك غرقوا فى البذخ والترف من جراء هذا النظام ، وأصبح لهم وحدهم

---

(١) معالم تاريخ العصور الوسطى . محمد رفعت ، محمد حسونة : ١٣٧ .

أمـلاك وسيعـة تقـرب من ربـع أراضى فرنسـا[1] . يقـول ول ديورانت صاحب قصة الحضـارة «كـانت العشـور أكـبر مصـادر الإيـراد، وذلـك أن قانون الدولة فرض بعد شارلمـان على جميـع الأراضى التى يملكهـا غير رجـال الـدين أن تؤدى عشر مجموع غلتهـا أو ربعهـا عينـا أو نقـدا إلى الكنيسة»[2] . . . بالإضافة إلى أن أملاك الكنيسة كانت معفاة من الضرائب .

إضـافـة الى أنهـا وقفت موقفـا معاديا للعلم وحقائقه النظرية والتجريبية مادام خارجـا عن نطـاق الكتـاب المقـدس . . والضـلال هو البحث عن الحقيقـة فى غير الكتـاب المقـدس كما تقول المستشرقة الألمانية زغريد هونكة . . «لقد أصبح استخدام العقـل للبحث فى الطبيعـة وعجـائبها . . ينظر إليه على أنه إساءة لاستخدام القوى التى منحنا إياها الله ، ويدعم الأب لاكتانيتوس هذا الرأي قائلا «لوكان هناك احتمال للوصول إلى الحقيقة عن طريق البحث والدراسة لكنا قد توصلنا إليها من زمن بعيد، وبـما أنـه لم يتـوصـل اليهـا برغـم ماضاع فى سبيل ذلك من وقت وجهد ـ فمن الواضح الجلى إذن أن الحكمة والحقيقة لاوجود لهما»[3] .

وتبنت الكنيسة أفكاراً ونظريات فى علوم الجغرافيا والطب والأحياء وغيرها ، ثم أضفت عليها من القداسة ماجعلها جزءاً من الدين نفسه ولم تسمح لأحد بمخالفتها واعتبرت من يخرج بشىء على غير ماهو مقرر لدى الكنيسة كافراً ملحداً تجب معاقبته .

محاكم التفتيش الكنيسية :

أنشئت فى أوربـا محاكم التفتيش بطلب الـراهب «تـوركـيمانـدا» لمقـاومة العلم والفكر الحر، ولذلك كان العلماء لايجرأون على الإعلان عن آرائهم إذا كانت مخالفة للكنيسـة ، وعـاشـوا فى حالـة من الإرهـاب الفكـري جعلهم يكتمـون ماعندهم من نظـريـات علميـة خوفـا من عقـاب الكنيسـة ، وقـد أدت هذه المحـاكم مهـامها حق الأداء . . فحكمت فى المـدة من عام ١٤٨١ ـ ١٤٩٩ أي فى حدود ثمانيـة عشـر عاما

(١) انظر تاريخ التمدن الحديث : ٦٥.

(٢) قصة الحضارة ج ١٦/ ٦٨.

(٣) شمس العرب تسطع على الغرب : ٣٦١.

على عشرة آلاف ومائتين وعشرين شخصا بأن يحرقوا وهم أحياء فأحرقوا، وعلى ستة آلاف وثمانمائة وستين بالشنق فشنقوا، وعلى سبعة وتسعين ألفا وثلاثة وعشرين شخصا بعقوبات مختلفة فنفذت(١).

ومن العلماء الذين تمت محاكمتهم على يد الكنيسة فى القرون الوسطى :

١ ـ غاليليو الذى قال بدروان الأرض حول الشمس، وقد اضطر أمام شدة التعذيب والسجن الذى تعرض له أن يتراجع عن آرائه ويعلن وهو جاث على ركبتيه أمام البابا «أربان الثامن» سنة ١٦١٥ الاعتراف التالى «أنا غاليليو فى السبعين من عمرى سجين على ركبتى وبحضور فخامتك وأمامى الكتاب المقدس الذى ألمسه الآن بيدى أعلن أنى لاأشايع . بل أعلن وأحتقر خطأ القول وهرطقة الاعتقاد بأن الأرض تدور»(٢).

٢ ـ ومثله «بافون» الذى كانت له آراء وأبحاث فى الجانب العلمى تخالف ماعليه الكنيسة ولما رآى قسوة الكنيسة فى معاملة مثله اضطر أن يتراجع عن آرائه ويعتذر علنا أمام الناس وكان مما قاله «أعلن إقلاعى عن كل ماجاء فى كتابي خاصا بتكوين الأرض وجملة على كل ماجاء به مخالفا لقصة موسى»(٣).

٣ ـ نيوتن الذى قال بقانون الجاذبية .

٤ ـ كوبرنيكوس الذى لم يفلت من قبضة الكنيسة إلا بادراك الموت له . وصودرت كتبه من بعده وأحرقت وحرم على أتباع الكنيسة الاطلاع عليها .

٥ ـ ومثله الطبيب بطرس ألبانو الذى مات قبل أن تمتد اليه يد الكنيسة .

٦ ـ جيوردِ انوبرونو الذى أحرقته الكنيسة حيا وذرته فى الرياح .

٧ ـ شيكودا سكولى الذى كان ذا شهرة وعلم فى الفلك بجامعة كولونيا . . وتم حرقه حيا فى فلورنسا(٤).

٨ ـ دى رومينس الذى قال أن قوس قزح ليس قوسا حربية بيد الله ينتقم بها من عباده اذا شاء، بل هو من انعكاس ضوء الشمس فى نقط الماء، فجلب الى روما

(١) انظر الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية : ٣٦.

(٢) بين العلم والدين أنديرو ديكسون وايت ـ ترجمة اسماعيل مظهر : ٧٩/ ٨٠.

(٣) المرجع السابق : ٢٧٩.

(٤) بين العلم والدين ـ أندريه ديكسون وايت ـ ترجمة اسماعيل مظهر : ١٥٦.

وحبس حتى مات، ثم حوكمت جثته وكتبه، وحكم عليها وألقيت في النار . .

٩ ــ أيضا لما أظهر «بلاج» رأيه في أن الموت كان موجودا قبل آدم عليه السلام، أي أن الحيوانات كان يدركها الموت . . قامت لذلك ضوضاء وجلبة، وانتهى الأمر بصدور أمر امبراطورى بقتل كل شخص يعتقد ذلك . .

هذه صورة مصغرة عن الحالة العامة ـ والحركة الفكرية خاصة ـ في أوربا في القرون الوسطى ونماذج لتسلط الكنيسة وقهرها لرجال العلم حينئذ، الأمر الذى شل الحركة العقلية وجعل كثيرا من الحقائق العلمية تختفى في صدور أصحابها مخافة ماينتظرهم من بطش الكنيسة .

في هذه الأثناء وقعت الحروب الصليبية بين المسلمين والأوربيين، واستمرت طوال القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلادى، واحتك الصليبيون خلالها بالمسلمين ووقفوا عن كثب على صفات الإسلام وروعة الفكر الإسلامي في جميع مجالات العلوم والفنون في الأندلس والشمال الإفريقى وصقلية وغيرها حيث كانت المدارس والجامعات المتعددة في كل مكان في بلاد المسلمين يؤمها طلاب العلم ومنهم الأوربيون الذين وفدوا يتعلمون من الأساتذة المسلمين وترجمت بعض الكتب إلى اللغة الانجليزية .

وظل الأمر في أوربا على الحال الذى شرحنا حتى كان القرن الخامس عشر الميلادى وبدأت الحروب الصليبية تعطى ثمرتها في العقلية الأوربية، فقام مارتن لوثر **١٤٨٣ ـ ١٥٤٦** بحركته الاصلاحية التى نادى فيها بالتحرر من سلطان الكنيسة، وأخذ يحارب تعاليمها التى أسماها «تعاليم الشيطان» واعتبر صكوك الغفران من وسائل الذل والعبودية التى يجب أن تنتهى . . ثم جاء بعده كالفن **١٥٠٩ ـ ١٥٦٤** وسار في نفس الاتجاه . . .

حتى ذلك العصر كان الدين ـ أي المسيحى ـ فوق العقل بمعنى أن العقل اذا بحث لايكون لمرئياته القداسة والاحترام التى للكتاب المقدس، ورغم أن حركة الإصلاح التى قام بها لوثر غيرت كثيرا من المفاهيم والاتجاهات إلا أنها كانت تجعل الكتاب المقدس مصدر الحقيقة فيما يتصل بالإيمان وله الكلمة الاخيرة .

٢ ــ عصر التنوير :

استمـــر الامـر على ذلـك حتى كان النصف الثـانى من القـرن الثـامن عشـر والمعروف بعصر التنويَر فى تاريخ الفلسفة الأوربية ، وكان الطابع الفكري المميز لذلك العصر هو سيادة العصر كمصدر للمعرفة دون غيره . . والمراد بهذا الغير الذى ينازعه السيـادة فى ذلـك الـوقت هو الـدين . . أي المسيحى ، فعصر التنوير يقصد به العصر الـذى انطلقت فيـه الـدعوة الى إبعاد الدين عن مجال التوجيه واحلال العقل محله ، أو اخضـاع الـدين للعقل واعطائه الحق فى نقد الدين فى اخص خصائصه وبذلك احتل العقـل مركـز السيادة وأخذ لنفسه الصلاحية التى كانت للكنيسة من قبل وهى توجيه النوع الانسانى أفراداً أو جماعات من فلاسفة هذه الاتجاه . . ولف ولسنج وفيشته فى ألمانيا وفولتير وبيلى ولامتر ى فى فرنسا .

٣ ــ عصر الوضعية أو سيادة مذهب الحس والاتجاه المادى :

بانتهـاء القـرن الثـامن عشـر انتهى عصـر التنوير تقريبا ، وابتدأ عصر آخر من عصـور الفكـر الأوربى تميـز بسيـادة الفكر المادى ، وظهر ذلك مع بداية القرن التاسع عشـر حيث أخـذت فلسفـة هذا القـرن تتجـه نحو سيادة الطبيعة على الدين والعقل معـا . . وإلى اعتبـار الـواقـع مصـدراً للمعـرفة اليقينية مقابل الدين والعقل . . وما الـدين والـوحى فى نظـر هذا الاتجاه إلا وهم أو خداع وما العقل إلا وليد الطبيعة التى تتمثل فى الوراثة والبيئة والحياة الاقتصادية . . الخ . . ومن هذا المنطلق كانت وضعية كونت وماركسية كارل . . وهو ماسنلقى عليه بعض الأضواء الكاشفة فى الصفحات التالية إن شاء الله .

ثانيا : الأساس الفكري المشترك للاتجاهات الغربية المادية :

التيارات الفكرية التى نشأت فى أوربا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كثيرة فمنها فلسفة هيجل «الديالكتيك» ومنها المذهب العقلى أو العقلانى ومنها الوضعية أو الواقعية، ومنها مذهب التطور، والماركسية والبراجماتية . . وغير ذلك وهى وإن كانت تختلف فى بعض خصائصها وسماتها إلا أنها تنطلق من مبدأ واحد وتعتمد أساسا فكريا مشتركا هو حصر نطاق الوجود وبالتالى إذا صرفنا النظر عن المذهب العقلى حصر نطاق المعرفة فى المادة وحدها، أما ما وراء ذلك من إله أو روحانيات، أو أمور غيبية كالجنة والنار والملائكة فإن الفلسفة المادية إما أن تنكر وجوده أصلا وإما أن ترى إغفاله أو إهماله كأن لم يكن . . حتى الإتجاه العلمانى الذى قام أساسا على فصل الدين عن الحياة يعتمد مايقوم على العلم التجريبى فقط دون ماعداه .

والفكر المادى الذى هو أساس هذه الاتجاهات غير العقلية جميعها وإن كان نشأ ونما فى أوربا فيما بعد القرن السابع عشر إلا أنه قديم فى البشرية قدم الآفات والانحرافات فيها، ويعتبر امتدادا لفكر هؤلاء الماديين أو الدهريين الذين أنكروا البعث قديما ونسبوا الموت للدهر بدلا من الله . . كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم **﴿وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾**(١)، كذلك أعداء الرسالات جميعا ماديون ولذلك تراهم يتطاولون بالمادة وينكرون البعث واليوم الآخر ويرون الجزاء للانسان قاصرا على متع الحياة الدنيا . . يقول سبحانه وتعالى **﴿وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون * وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين﴾**(٢) . .

---

(١) سورة الجاثية : ٢٤ .
(٢) سورة سبأ : ٣٤، ٣٥ .

﴿أيعدكم أنكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعدون ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين﴾(١) .

كما يحكى القرآن مقالة الماديين فى شبه الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام **﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه﴾**(٢) .

وقد بين القرآن الكريم أن هذا الذى طلبه الماديون فى شأن التصديق بالرسالة الخاتمة ليس غريبا ولا غير معهود فى تاريخ البشرية ، وإنما هو أمر تكرر على عهد الرسالات السابقة . .

﴿وقال الذين لايعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم﴾(٣) . أى أشبهت قلوب مشركى العرب قلوب من تقدمهم فى الكفر والعناد . .

﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة﴾(٤) .

﴿كذلك ماأتى الذين من قبلك من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون﴾(٥) . فتشابهت قلوبهم وقال متأخرهم بما قال به متقدمهم . .

فالظاهرة العامة للماديين فى كل عهد من عهود الرسالة هو ركونهم دائما على المحسوس المشاهد فقط ولا يعرفون غيره فى مجال الاقناع والاقتناع .

---

(١) سورة المؤمنون : ٣٥ ـ ٣٧ .
(٢) سورة الاسراء : ٩٠ ـ ٩٣ .
(٣) سورة البقرة : ١١٨ .
(٤) سورة النساء : ١٥٣ .
(٥) سورة الذاريات : ٥٢ ، ٥٣ .

الفصل السادس :

العلمـــــانية

تعريف العلمانية لغة واصطلاحا :

العلمانية كلمة أوربية النشأة ولذلك فنحن لانريد أن نبحث عن معناها فى لغة العرب وإنما نبحث عنها عند الأوربيين أنفسهم لنرى ماذا يعنون بها فنجد أنها ترجمة عربية لكلمة أوربية وهى ترجمة مضللة خادعة «لأنها توحي بأن لهاصلة بالعلم بينما هى فى لغاتها الأصلية (الأوربية) لاصلة لها بالعلم بل المقصود بها فى تلك اللغات هو إقامة الحياة بعيدا عن الدين ، أوالفصل الكامل بين الدين والحياة (كما أكدت ذلك دائرة المعارف البريطانية) وهكذا يتضح أنه لاعلاقة للكلمة بالعلم إنما علاقتها قائمة بالدين على أساس سلبي أي على أساس نفي الدين والقيم الدينية عن الحياة» .

وأولى الترجمات بها فى العربية أن نسميها «اللادينية»[١] .

والعلماني أيضا ترجمة لكلمة أوربية معناها : كل مايتعلق بالحياة الدينية المؤقتة وليست له قداسة . .

وعلى ذلك فالعلمانية فى الاصطلاح هى ذلك اللفظ الخادع الذى استخدم بدلا من عبارة اللادينية والتى تعتبر أصل الحركة التى ظهرت فى أوربا فى القرن التاسع عشر الميلادي لتعبر عن وجهة نظر المنكرين لوجود الله أوالذين يفصلون بين وجود الله وتأثيره فى الحياة .

فعلى فرض أن الحركة لم تنكر الدين من أساسه وانما تعزله عن المجتمع وتدع الفرد يباشر عبادته فى نطاق حياته الفردية فان فكرة بهذه الصورة فكرة لادينية والمجتمع الذى يتبناها مجتمع لاديني لأن المجتمع الذى يلجأ الى التخلص من الدين بعزله عن تيار الحياة وحركتها وحبسه داخل جدران الكنيسة انما هو مجتمع لاديني وان ادعى غير ذلك . . ولذلك ذهب البعض[٢] إلى أن الفكر العلماني الأوربي مر بمرحلتين :

---

(١) الإسلام فى حل مشاكل المجتمعات الإسلامية : ١٤ .
(٢) المرجع السابق .

المرحلة الأولى :ـ

مرحلة العلمانية المعتدلة وهى مرحلة القرنين السابع عشر والثامن عشر وهى وان اعتبر الدين فيها أمرا شخصيا لاشأن للدولة له الا أن على الدولة مع ذلك أن تحمي الكنيسة وبالأخص فى جباية ضرائبها . . والتفكير العلماني فى هذه المرحلة وان طالب بتأكيد الفصل بين الدولة والكنيسة الا أنه لم يسلب المسيحية كدين من كل قيمة لها وان كان ينكر فيها بعض تعاليمها ويطالب بإخضاع تعاليم المسيحية الى العقل والى مبادىء الطبيعة مما نشأ عنه ذلك المذهب المعروف باسم deism أي مذهب الربوبيين وهو مذهب يعترف بوجود الله كأصل للعالم ولكنه ينكر الاعجاز والوحي وتدخل الله فى العالم . . ومن أتباع هذا المذهب فولتير (١٦٩٤ ـ ١٧١٣) فى فرنسا وشفتسيرى (١٦٧١ ـ ١٧١٣) فى انجلترا وليسنج (١٧٢٩ ـ ١٧٨١) فى المانيا ومن فلاسفة هذه المرحلة المعتدلة للعلمانية فى أوربا الفيلسوف الانجليزي جون لوك (١٦٣٢ ـ ١٧١٤) وهوبز (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) .

المرحلة الثانية :

وهى مرحلة العهد المادي أومايسمى بالثورة العلمانية ـ مرحلة الجناح اليساري من مدرسة هيجل فى القرن التاسع عشر الى مابعده وعلمانية هذه المرحلة هى الغاء الدين أي دين ـ وليست فصلا بينه وبين الدولة كما هو المفهوم الأول ويعتبر فير باخ من أهم المؤسسين لفكر الثورة العلمانية فى القرن التاسع عشر اذ يمكن للانسان أن يدرس عنده مرحلة الانتقال من دين أرضي . . طبيعي . . الى المادية المتطرفة . . فقد بدا واضحا أنه يطيح بالثنائية بين الدين الغيبي والعالم المشاهد وكذلك بين الكنيسة والدولة وذلك فى رسالته التى كتبها عن هيجل(١) . ويعتبر ان الموجود الحقيقي هو المحس فقط والالحاد العلمي هو الرباط بين الدول وهنا نجد ان دافع العلمانية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر كان هو التنازع على السلطة بين الدولة والكنيسة

(١) مذاهب فكرية معاصرة للاستاذ محمد قطب دار الشروق الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م : ٤٤٥ .

ولذا كان الفصل هو الحل الرسمي لهذا النزاع وأن الدافع عليها فى القرن التاسع عشر كان هو الاستئثار بالسلطة ولذلك كانت العلمانية غير مساوية لمفهوم الفصل بين الكنيسة والدولة بل كانت الغاء للثنائية بهدم الدين كمقدمة ضرورية الى السلطة المنفردة التى هى سلطة جماعة العمل أوالمجتمع أوالدولة أوالحزب حسب تحديد بعض هؤلاء اليساريين(١) .

وهكذا . . غدت العلمانية هى اللادينية وانتهت الى نبذ الدين من حياة الانسان الفردية ومن الدولة ودعت الإنسان إلى عدم الإيمان بشيء الا من خلال مدركاته الحسية وتجاربه العملية واعتبرت ذلك هو السبيل الى تقرير الحقائق .

ولذلك فان قبول العلمانية فى أي مجتمع مسلم معناه الالحاد والمروق من الإسلام وردة صريحة عن دين الله الذى رضيه لها، حتى لو كانت بمعناها المعتدل فى مرحلتها الأولى كما سنبينه ان شاء الله .

ظروف نشأة العلمانية فى أوربا :

ظهرت العلمانية فى الفكر والسلوك الغربي نتيجة ظروف كانت وليدة البيئة الغربية بعضها يتعلق بموقف الكنيسة ورجالها والبعض الآخر يتعلق بتعاليم النصرانية نفسها، ذلك أنه فى القرون الوسطى ساد تسلط الكنيسة على حركة الحياة فى أوربا وتحكمها فى مشاعر الناس وأفكارهم على سواء، وحجرها على العقول والقلوب . . وكانت ترى فيما بين أيديها مما تسميه الكتاب المقدس كفاية لما يحتاجه الناس وما عدا ذلك فلا حاجة للناس اليه وأي فكر لايصدر عنها ولا يتمشى مع اتجاهاتها وأهدافها يجب كبته ومصادرته ولو أدى ذلك الى التخلص من صاحبه ووقفت وراء محاكم التفتيش تقتل وتحرق كل من يرفع رأسه بشيء فكثر ضحايا الكنيسة وأصبح قتلاها وسجناها بالمئات .

يصف توركيان نظرة الكنيسة هذه الى العلم فيقول :

«ان أساس كل علم ـ عندهم ـ هو الكتاب المقدس وتقاليد الكنيسة فالكتاب المقدس يحتوي على العرفان على المقدار الذى قدر للبشر أن ينالوه، فجميع ماجاء فى

---

(١) المرجع السابق.

الكتب السماوية من وصف السماء والأرض وتاريخ الأمم مما يجب تسليمه مهما عارض العقل أوخالف شاهد الحس فعلى الناس أن يؤمنوا به أولا ثم يجتهدوا ثانيا فى حمل أنفسهم على فهمه أي على تسليمه أيضا[1]. ولما تقدم عالم الصناعة وتضخمت رؤوس الأموال وتولد الاقطاع ونشأت طبقة الفقراء والعمال اتفقت الكنيسة مع معسكر رأس المال والاقطاع والتقى الأباطرة والبابوات حفاظا على مصالح الكنيسة ورجالها وابقاء على نفوذها الديني، وتم ذلك على حساب الجماهير واستغلال الدهماء، وكان نتيجة هذا السلوك من الكنيسة أن تمتع رجال الدين لديها بسلطة وسيعة تبيح لهم ابرام صكوك الغفران وقرارات الحرمان والتدخل فى الحياة الشخصية لدى الناس عند كرسي الاعتراف واتخذوا من ذلك وسيلة للكسب الحرام كما استباحوا لانفسهم فرض اتاوات مالية على الناس حتى أصبحوا غارقين فى الترف والبذخ وفشت فى أوساطهم الانحرافات وانتشر الفجور ـ واليك مايذكره ول ديورانت حول فساد رجال الكنيسة نقلا عن القديسة «كترين السينائية» «انك أينما وليت وجهك ـ سواء نحو القساوسة أوالأساقفة أوغيرهم من رجال الدين أوالطوائف الدينية المختلفة أوالاحبار من الطبقات الدنيا أوالعليا سواء كانوا صغارا فى السن أوكبارا لم تر الا شرا ورذيلة تزكم أنفك رائحة الخطايا الآدمية البشعة انهم كلهم ضيقوا العقل شَرِهُون . . اتخذوا بطونهم الها لهم يأكلون ويشربون فى الولائم الصاخبة حيث يتمرغون فى الاقذار ويقضون حياتهم فى الفسق والفجور ويذكر ديورانت أن سجلات الأديرة احتوت على عشرين مجلدا من المحاكمات بسبب الاتصال الجنسي بين رجال الكنيسة وراهباتها[2].

كان هذا سلوك خلفاء بطرس ونواب المسيح عليه السلام .

أحدثت هذه الظروف مجتمعة رد فعل عنيف لدى جماهير أوربا وولدت سخطا عاما ضد الكنيسة فى جميع الاوساط وبخاصة الطبقة الوسطى فانفجر الجميع ضد الدين ورجاله جميعا ونادوا بالحرية والعدل والمساواة أوفصل الدين عن الحياة وترك مالقيصر لقيصر ومالله لله .

---

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ٠ ٢٧، ٢٨ .

(٢) قصة الحضارة : ٢١/ ٨٤، ٨٥.

أضف الى هذا تعـاليم النصـرانيـة التى استحـالت الى طقوس جامدة لاحياة فيها واتجهت فى جوهرها للتزهد واحتقار الحياة الدنيوية والتجرد من عالم المادة من مثل «من لطمـك على خدك الايمن فحـول له الآخر أيضا، من أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا» «مستحيل أن يدخل غني ملكوت السموات» ـ «لاتهتموا لحياتكم بما تأكلون ولا للجسد بما تلبسون»[1] .

لقد نظرت أوربا الى هذه التعاليم الموغلة فى السماحة فوجدتها بعيدة عن واقع الحياة وظروف العصر .

بيان عدم وجود تلك الظروف فى الإسلام :

تلك هى ظروف نشأة العلمانيـة وهى كما ترى انهـا بعيدة كل البعد عن ظروف مجتمعنـا وايـماننا وعقائدنا وقيمنا وشتان بين ديننا ودين النصرانية فى هذه المجالات من ناحية البحث العلمي والواقع التاريخي على سواء :

فأولا : ليس فى الإسـلام كهنـوت . . ولا وساطة بين الخلق والخالق ويستطيع أي مسـلم فى أي بقعـــة من الأرض أن يتصـــل بربـــه بلا كاهن ولاقسيس وليس فى الإسلام رجال دين بالمعنى المعروف عند المسيحية وانما هناك علماء بالدين .

ثانيا : ليس فى الإسلام خصام أوسوء تفاهم بين الدين والعلم كالذى حدث بين الكنيسة ورواد الفكر الغربي فى عصر النهضة بل على العكس هناك انسجام تام بينهما ودعوة حارة من الإسلام للعلم والتعلم والضرب فيهما بحظ وافر ، انه فى الوقت الـذى كان القـول فيـه بكـرويـة الأرض يحدث اضطـرابـا فى عالم الكنيسـة . . كان المسلمـون يعـرفـون ذلـك ويذكرونه فى كتبهم منذ أول الخلافة العباسية ولاتتحرك له شعرة فى بدن واحد منهم .

وفى الـوقت الـذى ثار فيـه رجـال الكهنـوت المسيحي على طريقة الحقن تحت

(١) انظر انجيل لوقا الاصحاح : ٦، ١٢ .

الجلد وعارضوا استعمالها كان المسلمون هم الذين اكتشفوها ثم نقلها الى أوربا امرأة تسمى ماري ماناجو ١٧٢١ .

ان العلم في الإسلام فريضة مقدسة داخلة في الطاعات الدينية «طلب العلم فريضة على كل مسلم»(١) - «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»(٢) ، وهو المدخل إلى معرفة الله وخشيته **﴿انما يخشى الله من عباده العلماء﴾**(٣)، وسما القرآن بدرجات العلماء حتى قرنهم بالله وملائكته في الشهادة بوحدانيته والاقرار بعدالته **﴿شهد الله أنه لااله الا هو والملائكة وألوا العلم قائما بالقسط لااله الا هو العزيز الحكيم﴾**(٤) ، ويكفي أن أول فوج من أفواج الوحي نزل به جبريل على النبي ﷺ نوه بقيمة القراءة والتعلم **﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم﴾**(٥) .

والعلم في مفهوم الإسلام يفيد المعرفة المنظمة في أي ميدان من الميادين ويشمل جميع المعارف الإنسانية سواء كان مصدرها الوحى والنبوة كعلوم الدين من العقيدة والتفسير والحديث والفقه وغيرها أوكان مصدرها العقل والتجربة والنظر في الكون والحياة كالرياضيات والكيمياء وعلوم الطب والفيزياء . . الخ وهذا الشمول دلت عليه نصوص كثيرة منها : «من سلك طريقاً يطلب فيه علما سهل الله له طريقا الى الجنة»(٦) .

«لاحسد إلا في اثنين رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»(٧) .

بل إن الله عز وجل لما نوه بقيمة العلماء جاء السياق القرآني في شأن النظر الى

---

(١) مسلم .
(٢) الترمذى .
(٣) سورة فاطر : ٢٨ .
(٤) سورة آل عمران : ١٨ .
(٥) صدر سورة العلق .
(٦) مسلم وابن ماجه .
(٧) البخارى .

النبات والحيوان وشئون الكون الاخرى أي أنهم الذين يهتدون إلى عظمة الخالق من خلال عظمة الخلق فكل ماهو موجود فى الطبيعة دليل على وجود الله سبحانه وبذلك تصبح معرفة الطبيعة نوعا من العبادة ـ قال تعالى : **﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾**(١) ـ وقال : **﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين﴾**(٢) .

فللعلم فى الإسلام مفهوم عام شامل يقوم على استغلال طاقات الانسان والكون بما يحقق للانسانية السعادة والرخاء والاستقرار وبما يعطي لحضارة الإسلام حركتها وفاعليتها بشكل ما وميزة العلم فى الإسلام أنه مسخر لخير البشرية ورخائها فالبوصلة التى توجهه مضبوطة إلى جهة الخير دائما، فإذا انحرفت إلى الشر فقد العلم صبغته التى يستحق التكريم عليها . . وفى الحديث «من تعلم العلم ليباهي به العلماء أويماري به السفهاء أويضرب به وجوه الناس اليه أدخله الله النار»(٣) .

وثالثا : ليس فى الإسلام قداسة لجماعة معينة . . وليس فيه لأحد عصمة الا للرسول ﷺ وبالتالى ليست فى الإسلام نزعة الاستئثار بالسلطة لفريق من الناس دون فريق حتى يحدث صدام كالذى حدث بين الكنيسة والدولة فى الفكر الأوربي ان عقيدة الإسلام سوت بين الناس جميعا فى الاعتبار الانساني وأساس التحاكم بين الجميع هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ **﴿ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾**(٤) .

فأساس الاحترام والتقديس هو الكتاب والسنة وليس لحاكم فى الإسلام

---

(١) سورة فاطر : ٢٧، ٢٨ .

(٢) سورة الروم : ٢٢ .

(٣) ابن ماجه عن أبى هريرة ـ الفتح الكبير ج ٣/ ١٧٩ .

(٤) سورة النساء : ٥٩ .

قداسـة ولاصفـة الهيـة وإنـما احترامه وتبجيله بمقدار ارتباطه بحكم الإسلام وحرصه على تنفيـذه ولقـد كان المسلمـون يوجهون الخليفة اذا أخطأ وينقدون تصرفاته إذا ذل كل ذلك كان يتم باسم الله وبدافع من الإسلام وحده ولم يكن لحاكم أولرجل الدين عن حق لدى أحد من المسلمين إلا فى حدود تنفيذ شريعة الله التى يتساوى الجميع أمامها .

ورابعـا : ليس فى الإسـلام تعـاليم فات أوانهـا أو أحكام انقضى زمنها إن كل مافى الإسلام حي دائما متجدد دائما صالح للتطبيق فى كل عصر ومصر إلى أن تنقلب الحياة إلى ربها «إن الإسلام وهو من صنع بارىء هذا الكون ومنشىء نواميسه والعالم بما يجد فيـه ويتطـور كان فى حسـابه التطور التاريخي للبشرية وما يترتب عليه من تطور اجتـماعي واقتصـادي وفكـري عام وأنـه لهذا وضـع الخطوط المجملة والمبادىء العامة والقواعد الشاملة التى لاتخرج أطوار الانسان فى النهاية عن حدودها وترك التطبيقات لتطـور الـزمـان وبـروز الحـاجـات فى حدود مبـادئـه العـامة وقواعده الشاملة ولم يدل بتفصيـلات جزئيـة مفيـدة إلا فى المسائل التى لاتتغير حكمتها والتى تؤدى أغراضها كاملة فى كل بيئـة وانـه بهذا الشمـول وبهـذه المـرونة قد كفل لأحكامه التطبيقية النمو والتجـدد على مدى الأزمـان ولقـد بذل فقهـاء هذا الـدين جهـدا ضخما مشكورا فى التطبيق والقياس والتفريع كفل لاحكام الإسلام أن تساير حاجات المجتمع المتجددة[1]» ، «ثم أن الإسلام بما فيه من مرونة وشمول قابل لأن يبسط ظله على كل تجربة إنسانية صالحة للجماعة البشريه بحيث لاتصطدم مع مبدأ من مبادئه العامة ولا تعـترض نصـا من نصـوصـه الصـريحة وتتفق فى الوقت ذاته مع اهدافه العليا فى تنمية الحياة وترقية الحياة[2]» .

خامسـا : ثم إن المـلاحـظ أن الموطن الذى ولد فيه الفكر العلماني وهو انجلترا وفرنسا وألمانيا لم يأخذ بالاتجاه العلماني فى التطبيق فى الحياة العلمية فالتاج البريطاني لم يزل حاميـا للبر وتستـانت وفـرنسـا لم تزل حاميـة للكثلكـة فى صورة عملية والدولة فى

(١) العدالة الاجتماعية : ٢٠ .

(٢) المرجع السابق : ٢٢٥ .

انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الامريكية وألمانيا برغم أنها علمانية تساعد المدارس الدينية من ضرائبها الخاصة التى تجبيها من المواطنين مع علمها باستقلال هذه المدارس فى برامجها التعليمية[1] ـ لقد استردت الكنيسة أغلب مافقدت من نفوذ وأصابعها الآن تعمل فى توجيه السياسات الداخلية والخارجية للكتلة الغربية التى تتزعمها أمريكا وانجلترا ومع ذلك لاتعدم أن تجد ببغاوات فى بلاد المسلمين يرون عزل الدين عن الدولة .

روى البخاري من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن ابراهيم عن أبى معمر عن عبد الله أن نفرا من الانس كانوا يعبدون نفرا من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم[2] فنزل قوله تعالى : ﴿**أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا**﴾[3] .

خـدعة كبـرى :ـ

تلك التى مارسها الفكر الغربي عندما أطلق مصطلح العلمانية التى يوحي ظاهرها أن طريقة الحياة التى يدعو اليها تعتمد على العلم وتتخذه سندا لها حتى يخدع الآخرين بصواب الفكرة واستقامتها فمن الذى يقف فى وجه دعوة تقول للناس إن العلم أساسها وعمادها حتى انطلى الأمر على بعض السذج وأدعياء العلم عندنا فقبلوا المذهب منبهرين بشعاره وقد أداهم ذلك إلى الخروج عن الدين خروجا سافرا فى الفكر والسلوك .

والإسلام لايصد عن العلم والانتفاع به ولكن أي علم هذا الذى تدعيه العلمانية وتزعم أنه سندها وأساس الحياة المتطورة . . إنه العلم الذى لايعترف بالدين ولا يحفل بمقولاته ، العلم المادي المستمد من المدركات الحسية والتجارب المعملية فقط ذلك وحده فى نظرهم هو السبيل الوحيد لتقرير الحقائق وأي معرفة تأتي من غير هذا الطريق فليس لها صفة اليقين .

(١) الإسلام فى حل مشاكل المجتمعات : ٣٣ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٤٧/٣ .
(٣) سورة الاسراء : ٥٧ .

ومن هنا كانت العلمانية التى راجت فى مجتمعنا الإسلامي إنما هى اللادينية فى حقيقتها وجوهرها كما رأينا فى معنى لفظها فى اللغة الاجنبية، وأما الثوب الذى لبسته باسم العلم فإنما هو اصطلاح خادع ليدخلوا به على المجتمعات الإسلامية منها خاصة - حتى يثيروا لدى المتدينين طبيعة الدفاع عن دينهم لكن أنى لهم ذلك - ﴿**فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض**﴾[1] .

تطبيق العلمانية فى بلاد الإسلام :

أولا تركيا : كان أول من جاهر بالعلمانية كنظام دولة نظرية وتطبيقا هو كمال أتاتورك مؤسس تركيا الحديثة . . الذى ألغى الخلافة الإسلامية من تركيا وسلخها من الإسلام وإستبدل بالدستور العثماني القائم على الإسلام دستورا مدنيا بحتا - ولقد كانت تركيا مجبرة فى قبولها العلمانية تحت وطأة الانجليز الذين استغلو ضعف الدولة وهزيمتها فى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨م وقال وزير خارجية بريطانيا يؤمئذ «كرزون» بأنهم لايستطيعون أن يدعوا تركيا مستقلة حتى لايتجمع المسلمون حولها مرة أخرى وعندئذ طمأنهم «مصطفى كمال» بأن إستقلال تركيا لن يكون خطرا عليهم فى المستقبل فأملى الإنجليز شروطهم المعروفة بشروط «كرزون» الأربعة وهي :

١ - أن تقطع تركيا صلتها بالإسلام .

٢ - أن تلغي الخلافة .

٣ - أن تتعهد بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة .

٤ - أن تختار لنفسها دستورا مدنيا بدلا من الدستور العثماني المستمد من أحكام الشريعة الإسلامية والقائم على حدودها.

ولقد هدف الحلفاء من أن تعلن تركيا العلمانية وأن تفصل الإسلام عن الدولة إلى أمرين[2] :

---

(١) سورة الرعد : ١٧.

(٢) الإسلام فى حل مشاكل المجتمعات : ٤٨، ٤٩ بتصرف.

١ ــ إلغـاء الخـلافـة الإسلامية كأداة لتجميع المسلمين من عرب وعجم على السـواء فى آسيـا وإفـريقيـا إذ سيـترتب على إلغاء الخلافة إمكان تمزيق المسلمين إلى عرب ينطقون العربية وغير عرب ينطقون بلغاتهم الوطنية وعندئذ تنتشر القوميات .

٢ ــ عزل تركيا عن التراث الإسلامي وتكوين أجيالها القادمة على البعد عن الإسـلام وعن العـرب معـا وبـذلـك تصبح تركيـا المسلمة قريبة إلى الغرب فى ميوله وإتجاهه على نحو ماأبعد الإسلام من أسبانيا ومن البلقان وجزر البحر الأبيض المتوسط .

يقـول المؤرخ الـبريطاني «أرنولد توينبي» ، ولم يكتف الأتراك بتغيير دستورهم الـذى ينص على أن الإسـلام دين الـدولة بل قامت الجمهورية التركية الوليدة بخلع المدافع عن الدين الإسلامي ـ الخليفة ـ وألغت منصبه ـ أي الخلافة ـ وجردت رجال الـدين المسلمـين من منـاصبهم ، وحلت منظـماتهم وأزالت الحجاب عن رأس المرأة ، وإستنكـرت كل مايـرمز إليه الحجاب وأجبرت الرجال على ارتداء القبعات التى تمنع لابسيها من أداء شعائر الصلاة الإسلامية التقليدية وخاصة السجود وكنست الشرعية الإسـلاميـة بأكملهـا وتبنت القـانـون المـدني السويسري بعد أن ترجمته إلى التركية ، وطبقت قانون الجرائم الإيطالي وذلك بفرض هذين القانونين بعد التصويت عليهما فى المجلس الـوطني ، وغـيرت الأحـرف العربية بأحرف لاتينية وهذا أمر لايتم إلا بطرح القسم الأكـبر من الـتراث الأدبي العثـماني القـديم وأهـم وأشجـع تغيير قام به أولئك الثوريون فى تركيا هو ماقدموه للشعب من قيم ومثل إجتماعية جديدة[1] .

ثانيـا : تونس : والـذى أعلنتـه تركيـا مارسه الإستعمار الغربي عمليا فى البلاد الإسلامية بحيث لم تفلت أكثرية البلاد الإسلامية فى آسيا وإفريقيا من ممارسة العلمانية وإضعــاف الإســلام فيهــا ، ولكن ذلـك تم فى هدوء وتـدرج وفى غيبـة من الـوعي الإسـلامي ولـذلك لم تأخذ العلمانية لنفسها صفة الشرعية والدستور فى هذه البلاد كما هو الحـال فى تركيـا ولكنهـا استطـاعت من الـوجهـة العلمية أن تصبغ شئون التشريع والتربية والتوجيه بصبغتها .

(١) الإسلام والغرب والمستقبل : ٧٠ د. نبيل صبحى ط دار العربية .

يقـول المستشـرق الفـرنسي «هـانوتو» مشيرا إلى نجاح فرنسا فى فصل السلطة الـدينيـة عن السلطـة السيـاسيـة فى تونس أنها قد إستطاعت أن تحقق هذا الإنقلاب العظيم بلباقة وحذق دون أن تثير ضجيجا أو تذمرا، فتوطدت دعائم السلطة المدنية من غير أن يلحق بالدين مساس وتسربت الأفكار الأوربية بين السكان بدون أن يتألم منهـا إيـمان المحمـدي ـ أي المسلم ـ وبـذلـك انفصـل الحبـل بين هذا البلد والبـلاد الإسلامية الأخرى الشديدة الإتصال بعضها ببعض[1] .

ثالثـا: مصـر : ومـاجـرى فى تونس جرى فى كثـير من إخـوانها . . ففي مصر ينقسم النظام التعليمي الى نوعين :ـ

١ ــ ديني : وهـو الـذى يهتم بالـدراسـة الـدينيـة التى تعتمـد على الأصـول الإسلامية ويمثل هذا الإتجاه الأزهر وما يتبعه من معاهد .

٢ ــ مدني : أوإن شئت قلت علماني لايهتم بالدين وثقافته وتكاد تكون مناهج الـدراسـة فيـه خاليـة من الثقـافـة الإسـلاميـة، ويمثل هذا الإتجاه الجامعات المدنية والمدارس التى تتبع وزارة التربية والتعليم .

وقل مثل ذلك فى كثير من البلاد الإسلامية أيضا .

وفى مجال التشـريـع تنحصـر دائـرتـه فيما يسمى «بقانون الأحوال الشخصية» وماعدا ذلك تحول إلى قوانين مدنية يعتمد على نظم الغرب وسياسته خاصة القانون الفـرنسي وقـد تعجب لما ترى أن إنجلترا وهى التى كانت تستعمـر مصر يومئذ تسمح بقيام التشريع والقضاء فيها على قوانين فرنسية . . وفى ذلك كسب لاشك لفرنسا، التى كانت فى عداء معها، لكن ينبغي أن نعلم أن خلافات الأعداء فيما بينهم تزول عندما يكون الهدف هو ضرب الإسلام وأمته .

وبهـذا الكيـد السافر وقعت الأمة فى إنفصالية فى التشريع بين ماسمي بالقضاء الشـرعي ومـاسمي بالقضاء الأهلي تماما كما حدث فى جانب التعليم وفى مجال التربية والتوجيه والإعلام ساد مفهوم الغرب المسيحي للدين وهو أنه مجرد علاقة بين المرء وربه كما شاعت بين النـاس كلمات حول هذا المفهـوم مثـل «الـدين لله والـوطن للجميـع»

---

(١) تاريخ الاستاذ الإمام ج ٢ / ٤٠١ .

ومفهـومهـا يشعـر بأن التمسـك بالإسـلام ينـافي كون الوطن للجميع وهكذا أخذت السياسة الغربية العلمانية توطد أركانها فى البلاد حتى أثر ذلك فى فكر بعض العلماء، وقـام الشيـخ علي عبـد الـرزاق ليؤلف كتابا عن الإسلام وأصول الحكم يزعم فيه أن لاصلة للدين بالـدولـة . . ويعلن ـ في جرأة ـ أن الإسـلام لايشترط للحكومة صورة من أي نوع فلتكن مطلقة أومقيدة، فردية أوجمهورية إستبدادية أوشورية، ديمقراطية أوإشتراكية أوبلشفية ولقد قرت أعين الغربيين بهذا الكتاب، فلا عجب أن ترجم إلى الإنجليـزيـة وأصبـح يعد من المراجع الأساسية لعلم الإجتماع الإسلامي فى دراسات الجامعات الأمريكية على الخصوص، للإسلام وتعاليمه[1] .

ويأتي تقـويمـه على هذا النحـو لا لأنـه يعـرض فكـرة جديدة على الغرب فى الـدراسـات الإسلامية بل لأنه يصدر من مسلم هو عالم أزهري وفى ذلك ترويج لفكر الكتـاب بين الطـلاب الغربيين الذين يدرسون الإسلام والشعوب الإسلامية وفى عام **١٩٤٩** قام بنفس الـدور عالم أزهـري آخـر هو الشيـخ خالد محمد خالد يهاجم الحكم الإسـلامي وينـادي بالحكم القـومي وذلـك فى كتابه الذى سماه «من هنا نبدأ» والذى تلقته الأجهزة السرية للماسونية والصليبية والشيوعية فروجت له، ووسعت دائرة نشره فى كل مكان، وبكل سبيل كما روجت للكتاب السابق[2] .

وقـد تصـدى العلماء للكتـابين، وفندوا مافيهما، وبينوا بطلانه فرد الشيخ محمد الخضر حسين على الكتاب الأول ورد الأستاذ سيد قطب والشيخ محمد الغزالي على الكتاب الثاني فى كتابيهما «معركة الإسلام والرأسمالية» «ومن هنا نعلم» .

لكن يبدو أن الشيخ خالد تراجع عن آرائه تلك فقد صدر له أخيرا كتاب عن الدولة فى الإسلام.

وماحدث فى مصر وتونس حدث فى كثير من البلاد الإسلامية الأخرى .

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث ـ د. محمد البهى : **٣٣٢** ط ثانية هامش.

(٢) الحلول المستوردة : **٥٨** ط بيروت.

رابعـا : الهنـد : يقـول الاستاذ أبو الأعلى المودودي «إن أول قطر بدأ فيه الغاء الشـريعـة الإسـلاميـة هو الهند، وكانت هذه الشريعة هى قانون الدولة العام فى الهند حتى بعد أن قام فيها الحكم الإنجليزي، فكانت يد السارق تقطع إلى **١٧٩١** ولكن الإنجليز أخذوا بعد ذلك يلغون القانون الإسلامي آنا بعد آن ويستبدلون به القوانين الـوضعيـة حتى تم الغـاؤ هـا فى أواسط القرن التاسع عشر ولم يبق منه تحت النفاذ الا ماكان يتعلق بمسائل النكاح والطلاق وغيرهما على اعتباره قانون المسلمين لأحوالهم الشخصية . . ثم على منوال الحكومة الانجليزية فى الهند نسجت الاقطار التى كانت حكـومـات المسلمـين أنفسهم قائمـة فيها فصاغت جميع ولايات الهند المسلمة قوانينها العـامـة شيئـا فشيئا حسب قالب القانون الجاري فى الهند البريطانية، وضيقت نطاق الشريعة إلى قانون المسلمين لأحوالهم الشخصية(١) .

ولئن كان الاستعـمار العسكـري قد رحـل عن البلاد الإسلامية والعربية إلا أن آثاره وذيوله السيئة لاتزال تطبع على جوانب كثيرة من بلاد المسلمين .

والأمل معقود فى أن تراجع هذه البلاد نفسها وتنفي عن أممها هذا الخبث وتعود إلى شريعة ربها كما جاءت فى كتاب الله وسنة رسوله، ولتعود الى مصدر الري والامان والعدل والسلام .

---

(١) القانون الإسلامي وطرق تنفيذه : ١٠، ١١ هامش.

موقف الإسلام من العلمانية :

سواء كانت العلمانية بمعنى فصل الدين عن الحياة أوبمعنى اللادينية فهى ضد الإسلام والإسلام يرفضها من ألفها إلى يائها بهذا المعنى أوذلك .

فالدولة فى الإسلام ضرورة لامحيص عنها لنفاذ الأحكام وصيانة الحقوق وضمان الحريات ووصول الدين إلى أهدافه وأغراضه ، ومن يوم أن جاء الإسلام وهو عقيدة تملأ جوانح القلوب وشريعة تنظم شئون المجتمع . . ويوم يفقد الإسلام سيطرته على الحكم فسوف تتحول كثير من أحكامه وتعاليمه إلى حبر على ورق لأنه لايمكن تنفيذها من قبل الفرد وحده ـ وذلك كالجهاد والقصاص وايتاء الزكاة وما شابه ذلك وأنقل هنا ماسبق أن كتبته ردا على دعوى فصل الدين عن السياسة أوفصل السياسة عن الدين .

هل صحيح أنه لاسياسة فى الدين ولادين فى السياسة ؟

ان كان المقصود بالدين هنا ـ المسيحية ـ فهذا صحيح وللحديث فيه مكان آخر .

أما بالنسبة للإسلام فالأمر يختلف ـ لأن الإسلام جاء عقيدة تنظم علاقة الناس بربهم .

وشريعة تدير جميع شئون الحياة من ألفها إلى يائها ، والدين عند الله هو الإسلام ، والإسلام كما يدل عليه اسمه الإستسلام المطلق لألوهية الله تعالى وحده ، والانقياد بناءعلى ذلك لأمره ونهيه وقضائه .

وقد شملت أوامر الله ونواهيه الحياة بأسرها ، فليس هناك جانب من جوانب الحياة ، أوشىء من نظمها الا ولله عز وجل فيه حكم ، فحياتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية ، وضع الله لنا أصول التعامل فيها ، وفصل بعض جوانبها

تفصيلا، وأجمل البعض الآخر لتكيفه الامة حسب ظروفها وحاجاتها.

ومما وضع الله أصوله وقواعده شئون السياسة والحكم، وفن إدارة الدولة، وتنظيم العلاقة بين الحاكمين والمحكومين، وبينهم وبين المجتمعات الأخرى. يعرف ذلك عامة المسلمين، ويجمع عليه علماؤهم.

ولهم على ذلك من الأدلة الكثير.

آيات من القرآن الكريم تتعلق بالحكم :

١ ــ يقول سبحانه وتعالى مخاطبا نبيه عليه الصلاة والسلام : **﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾**(١).

ومن هذا الشيء المبين أصول الحكم وقواعده.

٢ ــ **﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا * ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾**(٢).

٣ ــ **﴿وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهم وأحذرهم أن يفتنوك عن بعض ماأنزل الله إليك فإن تولوا فإعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون، أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾**(٣).

٤ ــ **﴿فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾**(٤).

٥ ــ **﴿وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله﴾**(٥).

---

(١) سورة النحل : ٨٩.

(٢) سورة النساء : ٥٨، ٥٩.

(٣) سورة المائدة : ٤٩، ٥٠.

(٤) سورة النساء : ٦٥.

(٥) سورة آل عمران : ١٥٩.

«أخـرج ابـن عدي والبيـهـقـي في الشعب عن ابن عبـاس قال : لما نزلت وشاورهم فى الأمر قال ﷺ أما ان الله ورسوله لغنيان عنها ولكن جعلها الله رحمة لأمتي فمن استشار منهم لم يعدم رشدا ومن تركها لم يعدم غيا» .

وأخـرج البيهقي أيضـا عن الحسن أنـه قال فى الآيـة «قـد علم الله تعالى مابه اليهم حاجـة ولكن أراد أن يستن به من بعـده ، وعن الضحاك قال : ماأمر الله تعالى نبيـه بالمشـاورة لحاجـة منـه إلى رأيهم وإنـما أراد أن يعلمهم مافى المشـاورة من فضـل ولتقتدي به أمته من بعده .

نصوص من السنة تتعلق بالحكم :

٦ ــ «اذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم»(١) .

«لايحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض الا أمروا أحدهم»(٢) .

يقـول ابن تيميـة فإذا كان ـ أي النبي ﷺ ـ قد أوجب فى أقل الجماعات وأقصر الاجتماعات أن يولى أحدهم كان هذا تنبيها على وجوب ذلك فيما هو أكثر من ذلك(٣) .

٧ ــ «إنما الإمام جنة يقاتل من ورائه ويتقى به»(٤) .

«من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة الجاهلية»(٥) .

«من مات وليس عليه إمام فميتته ميتة جاهلية»(٦) .

ومن هنـا كان لابـد من إقـامـة حاكم يرعى الذمام ، ويصون الحقوق ويسوس الأمـة ، وينصف المظلوم ، ويؤدي لكـل ذي حق حقه ، وكل هذا من الدين ، ولذلك عرف الشيـخ ولي الله الـدهلوي الخـلافـة بقـوله : «هى الرئاسة العامة لإقامة الدين

(١) سنن أبي داود عن أبي سعيد .
(٢) مسند الامام أحمد عن عبد الله بن عمر .
(٣) كتاب الحسبة لابن تيمية : ٥ ط السلفية ١٣٨٧ .
(٤) مسلم عن أبي هريرة .
(٥) مسلم عن أبي هريرة .
(٦) رواه البزار والطبري .

بإحيـاء العلوم الـدينيـة وإقـامـة أركان الإسلام والقيام بالجهاد ومايتعلق به من ترتيب الجيـوش للمقـاتلة وإعطـائهم من الفيء والقيام بالقضاء وإقامة الحدود ورفع المظالم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نيابة عن النبي ﷺ(١) .

٨ ــ كما بين الشرع حدود طاعة الحاكم فقال ﷺ : لاطاعة لمخلوق فى معصية الله(٢) .

وقال : السمع والطاعة حق على المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولاطاعة(٣) .

وقال : لاطاعة فى معصية الله إنما الطاعة فى المعروف(٤) .

ولـذلـك قال الصـديق أبـو بكـر عنـد توليـه الخلافة : «أطيعوني ماأطعت الله ورسوله فإن عصيت فلا طاعة لى عليكم» .

وقال عمر بن الخطاب مثله ثم قال : «وإن أخطأت فقوموني، فقال أحد الرعية إن أخطأت قومناك بسيوفنا . . فرد أمير المؤمنين قائلا : الحمد لله الذى جعل فى أمة محمد ﷺ من يقوم عمر بسيفه» .

ولقـد كان أبـو بكـر رضى الله عنـه إذا أعياه أمر جمع المسلمين، وقال أتاني كذا وكذا، فهل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى فيه بقضاء فان كان عندهم عن رسول الله ﷺ فيه قضاء أخذ به وقال : الحمد لله الذى جعل فينا من يحفظ عن نبينا وان لم يجد فيه سنة، استشار رؤس الناس وخيارهم، فان أجمع أمرهم على رأي قضى به .

وكان عمر رضى الله عنه يفعل ذلك، فان لم يجد فى القرآن والسنة نظر هل لأبي بكـر فيـه قضـاء، فان وجـد قضى به، وإلا دعـا رؤوس المسلمـين فاستشـارهم فاذا إجتمعوا على أمر أخذ به .

---

(١) عن كتاب ازالة الخفاء عن خلافة الخلفاء .

(٢) رواه أحمد والحاكم عن همران بن حصين .

(٣) رواه الستة وأحمد عن ابن عمر .

(٤) أخرجه أبو داود والنسائى .

جاء فى صحيح البخاري، كان الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم فى الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره إقتداء بالنبي ﷺ .

٩ ـ ومما جاء فى السنة يتعلق بمسئوليات الحاكم هذه الأحاديث :

«اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمتي شيئا فرفق بهم فارفق به»(١) .

«مامن إمام أو وال يغلق بابه دون ذوى الحاجة والخلة والمسكنة الا أغلق الله أبواب السماء دون حاجته وخلته ومسكنته» (٢) .

«ومن ولى من أمر المسلمين شيئا فأمر عليهم أحدا محاباة فعليه لعنة الله لايقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله جهنم»(٣) .

«من استعمل رجلا على عصابة وفى تلك العصابة من هو أرضى منه فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين» (٤) .

وغير ذلك من الشواهد والادلة كثير .

وكتب السنة غنية بثروة كبيرة من الاحاديث عن الامارة والدولة .

التطبيق العملي لنظم الإسلام :

ولقد جاء التطبيق العملي لنظم الإسلام فى الحكم والسياسة فى عهد النبي ﷺ ، فلقد كان عليه الصلاة والسلام مبشرا ونذيرا، وكان رئيس الأمة وقاضيها، وواعظها، وإمامها، وقائد جيشها، ومصرف شئون دولتها .

وسار على نهجه خلفاؤه الأطهار، فلم يفصلوا بين دين وسياسة بل ربطوا بينهما ربطا وثيقا، وكانوا يجعلون للدين السلطان على السياسة، بما كانوا يأخذون على الخليفة عند مبايعته شرط العمل بكتاب الله وسنة رسوله .

(١) مسلم عن عائشة .
(٢) أبو داود والترمذى وأحمد عن عمرو بن مرة .
(٣) أحمد والحاكم عن أبى بكر .
(٤) الحاكم عن ابن عباس .

ومن شواهد ربطهم بين السياسة والدين . . ماجرى بين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب من محاورة بشأن قتال مانعي الزكاة .

فأبو بكر يقول : «والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه للنبي ﷺ لقاتلتهم عليه» .

وعمر يمانع مستدلاً بالحديث «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لاإله إلا الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم» (١) .

ويحتج الصديق بما جاء فى الحديث «الا بحقها» ويقول الزكاة من حق الأموال فلو لم يكن الصحابة على يقين من أنه لافرق بين دين وسياسة ، وأنه لايجوز للسياسة أن تخطو خطوة إلا بعد أن يأذن لها الدين ماأورد عمر بن الخطاب الحديث ، أولقال أبو بكر لعمر عندما رآه يحتج بالحديث حديث رسول الله من الدين ، وقتال مانعي الزكاة من السياسة .

كذلك لما وقف عمر بن الخطاب ينهى عن المغالاة فى مهور النساء عارضته إمرأة بقولها يقول الله عز وجل ﴿وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا﴾(١) . لم يزد عمر على قوله أصابت إمرأة وأخطأ عمر .

وكان من الممكن أن يقول : هذا دين . . وتلك سياسة .

ولهذا يقول الشيخ محمد الخضر حسين ، فصل الدين عن السياسة هدم لمعظم حقائق الدين ولايقدم عليها المسلمون إلا بعد أن يكونوا غير مسلمين ، وليست هذه الجناية بأقل مما يعتدى به الأجنبي على الدين اذا جاس خلال الديار ، وقد رأينا الذين فصلوا الدين عن السياسة وعلمنا كيف صاروا أشد الناس عداوة لهداية القرآن(٣) .

ولأن هذا الأمر يعتبر من بديهيات الإسلام الأولى ألف علماء المسلمين كتبا فى الحسبة ونظم الحكم وأصوله ، وفى السياسة الشرعية والقضائية بل لقد جمع الدكتور

---

(١) متفق عليه ـ الفتح الكبير ج ١/ ٢٦٠ .

(٢) سورة النساء : ٢٠ .

(٣) انظر كتاب رسائل الاصلاح للشيخ محمد الخضر حسين ط ١٣٩١/ ١٦٥ .

محمـد حميـد الله مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة فقط، فوقع ذلك في مجلد ضخم يزيد على الخمسمائة صحيفة قال في مقدمته : «لاشك أن العهد النبوي على صاحبـه الصـلاة والسـلام كان عهـداً ذا نتـائـج هامـة في تاريـخ العالم السياسي والاقتصادي وغير ذلك ولما كان غير ممكن أن نفهم الحالة السياسية في عصر من العصـور إلا بمـراجعـة الوثائق الرسمية التي تتعلق بذلك العصر، وهي من أجل المآخذ للحقائق التاريخية كان من الضروري أن نجمع الوثائق المتعلقة بالعصر النبوي حتى يتسنى لنا أن نفهمه فهما صحيحا[1] .

(١) الكتاب المذكور : ٩ ط الثالثة ١٣٨٩هـ.

الليبرالية

١- المفهوم وغموضه:

الليبرالية مصطلح أجنبي معرب مأخوذ من (Liberalism) في الإنجليزية، و (Liberalisme) في الفرنسية، وهي تعني "التحررية"، ويعود اشتقاقها إلى (Liberaty) في الإنجليزية أو (Liberate) في الفرنسية، ومعناها الحرية(١).

من الصعوبة بمكان تحديد تعريف دقيق لليبرالية، وذلك بسبب تعدد جوانبها، وتطورها من جيل إلى جيل.

في الموسوعة العربية العالمية "وتعتبر الليبرالية مصطلحاً غامضاً لأن معناها وتأكيداتها تبدَّلت بصورة ملحوظة بمرور السنين"(٢)

وقال الدكتور يوسف القرضاوي: "وأمثال هذه المصطلحات التي تدل على مفاهيم عقائدية ليس لها مدلول واحد محدد عند الأوربيين. لهذا تفسر في بلد بما لاتفسر به في بلد آخر، وتفهم عند فيلسوف بما لاتفهم به عند غيره، وتطبق في مرحلة بما لاتطبق به في أخرى.

ومن هنا كان اختلاف التعريفات لهذه المفاهيم، وكانت الصعوبة في وضع تعريف منطقي جامع مانع يحدد مدلولها بدقة. حتى اشتقاق كلمة "ليبرالي"نفسها اختلفوا فيه :هل هي مأخوذة من (ليبرتي) التي معناها الحرية كما هو مشهور أم هي مأخوذة من أصل أسباني ؟" (٣).

ولكن لليبرالية جوهر أساسي يتفق عليه جميع الليبراليين في كافة العصور مع اختلاف توجهاتهم وكيفية تطبيقها كوسيلة من وسائل الإصلاح والإنتاج.

هذا الجوهر هو "أن الليبرالية تعتبر الحرية المبدأ والمنتهى، الباعث والهدف، الأصل والنتيجة في حياة الإنسان، وهي المنظومة الفكرية الوحيدة التي لا تطمع في شيء سوى وصف النشاط البشري الحر وشرح أوجهه والتعليق عليه" (٤).

---

(١)((**مختصر دراسة التاريخ**)) **(٣/ ١١٣)**.

(٢) – الموسوعة العربية العالمية ٢٤٧/٢١.

(٣) – الحلول المستوردة ص / ٥٠ – ٥١

(٤) – مفهوم الحرية – عبد الله العروي – ص/ ٣٩.

خلاصة :

الليبرالية لها مفاهيم متعددة بحسب ما تضاف إليه ، ويجمعها الاهتمام المفرط بالحرية ، وتحقيق الفرد لذاته ، واعتبار الحرية هدفاً وغاية في ذاتها .

فالليبرالية هي "نظرية الحرية"، وهي نظرية ذات أطياف متعددة وجوانب مختلفة ، وبمقادير متفاوتة .

والحرية –كما يلا حظ الباحث المدقق – مفهوم عام يمكن أن يعني به الحرية المطلقة دون معنى محددا ، وقد يريد به البعض معنا محددا معينا.

ولكن المفهوم الفلسفي لهذا المذهب الفكري هو الحرية المطلقة التي لا تحدها الحدود ولا تمنعها السدود الا ما كان فيها تجاوز لحريات الآخرين على قاعدة (تنتهي حريتك حيث تبدأ حريات الآخرين) .

ومن أستعمل هذا المصطلح لغير هذا المفهوم الشمولي فهو غير مصيب في استعمال المصطلح في غير مجاله وكان الأولى به البحث عن لفظ يناسب معناه غير هذا المصطلح .

وهذا يكشف مدى تردد الليبراليين العرب بين مفهوم المصطلح الفلسفي وبين انتسابهم للإسلام المناقض له من الجذور والأصول .

٢- تاريخ نشأة الليبرالية:

نشأت الليبرالية في التغيرات الاجتماعية التي عصفت بأوروبا منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي، وطبيعة التغير الاجتماعي والفكري يأتي بشكل متدرج بطيء.

وهي لم "تتبلور كنظرية في السياسة والاقتصاد والاجتماع على يد مفكر واحد، بل أسهم عدة مفكرين في إعطائها شكلها الأساسي وطابعها المميز.

فالليبرالية ليست اللوكية (نسبة إلى جون لوك ١٦٣٢ – ١٧٠٤)، أو الروسووية (نسبة إلى جان جاك روسو ١٧١٢-١٧٧٨) أو الملّية (نسبة إلى جون ستوارت ملْ ١٨٠٦-١٨٧٣)، وإن كان كل واحد من هؤلاء أسهم إسهاماً بارزاً أو فعالاً في إعطائها كثيراً من ملامحها وخصائصها"[١]

قال منير البعلبكي :"الليبرالية (liberalism) فلسفة سياسية ظهرت في أوربا في أوائل القرن التاسع، ثم اتخذت منذ ذلك الحين أشكالاً مختلفة في أزمنة وأماكن مختلفة[٢]

والظاهر من تاريخ الليبرالية أنها كانت رد فعل لتسلط الكنيسة والإقطاع في العصور الوسطي بأوربا، مما أدى إلى انتفاضة الشعوب، وثورة الجماهير، وبخاصة الطبقة الوسطي، والمناداة بالحرية والإخاء والمساواة، وقد ظهر ذلك في الثورة الفرنسية، وقد تبين فيما بعد أن هناك قوى شيطانية خفية حولت أهداف الثورة وغايتها[٣].

والنظام الإقطاعي الذي سيطر على أوروبا في العصور الوسطى من أقسى الأنظمة وأكثرها عنصرية وطبقية؛ وهو يجعل الناس طبقتين:

إحداهما: السادة، (النبلاء والملوك)، وهم الطبقة السياسية، ورجال الدين (الاكليروس)، وهم الطبقة الدينية.

والثانية: الفلاحون (الرقيق) وهم عامة الشعب.

ومن عامة الشعب نشأت طبقة ثالثة ليست من النبلاء، ولا الرقيق، يعتمدون على التجارة والكسب من غير أن يكونوا رقيقا في الأرض، ويدخل في هذه الطبقة التجار، والمدرسون،

---

(١) – الموسوعة الفلسفية العربية (الجزء الثاني – القسم الثاني – ص / ١١٥٥)

(٢) – موسوعة المورد العربية ١٠٥٠/٢.

(٣) – أنظر : الموسوعة الفلسفية العربية

والأطباء، والمهندسون، وأصحاب المهن الحرة، وقد عرفت هذه الطبقة بالطبقة الوسطى (البرجوازية).

وقد ضاق التجار وأصحاب رؤوس الأموال من القيود والانغلاق الذي يقف حائلا دون تنمية رؤوس أموالهم، وتوسيع طموحاتهم المادية، وقد كانت لهذه الطبقة الجديدة دور بالغ الأهمية في تأسيس مجتمع السوق القائم على المنافسة، كما كان لها أثر بالغ في التحولات الاجتماعية في أوروبا، والوقوف في وجه الإقطاع والكنيسة. وقد كان يعوز هذه الطبقة: "النظرية الفلسفية" التي تساعدهم في الخروج من قبضة الإقطاع والكنيسة، وقد وجدوا بغيتهم في "الليبرالية" التي تقوم على "الحرية الاقتصادية" ورفع العوائق عن آليات السوق، وترك حركته مرسلة دون تدخل أو رقابة ..... وبهذا نستطيع أن نقول إن الليبرالية هي فكر ومنهج الطبقة الوسطى، باعتبارها تقوم على أساس الفردية، وخاصة من خلال آراء "جون لوك" في الملكية الخاصة، والذي يعتبر من أوائل الفلاسفة الليبراليين وفلسفة تتعلق بالليبرالية السياسية(١).

وقد انتقلت الليبرالية من الفكر المجرد إلى الواقع العملي من خلال: الملكية الدستورية في إنجلترا (١٦٨٨م)، والثورة الأمريكية (١٧٧٥م)، والثورة الفرنسية (١٧٩٨م).

وبهذا يتضح لنا أن الليبرالية في صورتها المعاصرة نشأت مع النهضة الأوربية ثم تطورت في عصور مختلفة إلى يومنا هذا.

---

(١) حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها لسليمان الخراشي ص٣٥–٣٨.

٣- مجالات الليبرالية في البيئات الغربية والعربية: (فكرية، سياسية، اقتصادية):

أبرز هذه المجالات شهرة : المجال السياسي، والمجال الاقتصادي، والمجال الفكري.

أولاً : ليبرالاية السياسة

في موسوعة لالاند الفلسفية: "الليبرالية: مذهب سياسي يرى أن من المستحسن أن تزاد إلى أبعد حد ممكن استقلالية السلطة التشريعية والسلطة القضائية بالنسبة إلى السلطة الإجرائية التنفيذية، وأن يعطى للمواطنين أكبر قد من الضمانات في مواجهة تعسف الحكم".(١)

وتعتبر الديمقراطية من النظم الليبرالية التي تسعى لإعطاء الفرد حقوقه وهي نوع من التطبيق العلمي للفكر الليبرالي. يقول الدكتور حازم البيلاوي : "فنقطة البدء في الفكر الليبرالي هي ليس فقط أنها تدعو للديمقراطية بمعنى المشاركة في الحكم، ولكن نقطة البدء هو أنه فكر فردي يرى أن المجتمع لا يعدو أن يكون مجموعة من الأفراد التي يسعى كل فرد فيها إلى تحقيق ذاته وأهدافه الخاصة(٢).

وقد أعطت الديمقراطية كنظام سياسي جملة من الحريات السياسية مثل : حرية الترشيح، وحرية التفكير والتعبير، وحرية الاجتماع، وحرية الاحتجاج، كما أعطت جملة من الضمانات المانعة من الاعتداء على الأفراد وحرياتهم مثل : ضمان الاتهام، وضمان التحقيق، وضما التنفيذ، وضمان الدفاع".(٣)

ثانياً : ليبرالية الاقتصاد

الليبرالية الاقتصادية: "مذهب اقتصادي يرى أن الدولة لا ينبغي لها أن تتولى وظائف صناعية، ولا وظائف تجارية، وأنها لا يحقّ لها التدخل في العلاقات الاقتصادية التي تقوم بين الأفراد والطبقات أو الأمم. بهذا المعنى يقال غالباً ليبرالية اقتصادية"(٤).

ويلاحظ أن هذا التعريف واقع على الليبرالية الكلاسيكية قبل التحول الكبير الذي تم في الليبرالية الجديدة على نحو ما سيأتي.

---

(١) – موسوعة لا لاند الفلسفية ٧٢٥/٢.

(٢) – مجلة آفاق الإسلام – عدد ٤–عام ١٩٩٤م.

(٣) – انظر تفصيل ذلك في : مذاهب فكرية معاصرة – للأستاذ محمد قطب – (الديمقراطية).

(٤) – موسوعة لا لاند الفلسفية ٧٢٦/٢.

يقول البعلبكي: "ويطلق لفظ الليبرالية أيضاً على سياسة اقتصادية نشأت في القرن التاسع عشر متأثرة بآراء آدم سميث بخاصة، وأكدت على حرية التجارة وحرية المنافسة، وعارضت تدخل الدولة في الاقتصاد"(١).

والليبرالية الاقتصادية وثيقة الصلة بالليبرالية السياسية، ويعتقد الليبراليون أن الحكومة التي تحكم بالحد الأدنى يكون حكمها هو الأفضل.. ويرون أن الاقتصاد ينظم نفسه بنفسه إذا ما ترك يعمل بمفرده حراً، ويرون أن تنظيمات الحكومة ليست ضرورية(٢).

وأبرز النظم الاقتصادية الليبرالية هو نظام "الرأسمالية" التي رتّب أفكاره عالم الاقتصاد الاسكتلندي آدم سميث في كتابه (ثروة الأمم).

ويدخل في الحرية التي يطالب بها الليبراليون حرية حركة المال والتجارة، وحرية العمل وحرية التعاقد، وحرية ممارسة أي مهنة أو نشاط اقتصادي آخذاً من الشعار الشهير للثورة الفرنسية "دعه يعمل دعه يمر".

ثالثاً : ليبرالية الفكر وسيأتي الحديث عنها في الفقرة التالية.

---

(١) – موسوعة المورد العربية ١٠٥٠/٢.

(٢) – أنظر الموسوعة العربية العالمية ٢٤٨/٢١

٤- الأصول الفكرية لليبرالية:

تقوم الليبرالية على أسس فكرية هي القدر المشترك بين سائر اتجاهاتها وتياراتها المختلفة، ولا يمكن اعتبار أي فرد ليبراليا وهو لا يقر بهذه الأسس ولا يعترف بها، لأنها هي الأجزاء المكونة لهذا المذهب والمميزة له عن غيره.

وتنقسم هذه الأسس المكونة لليبرالية إلى قسمين:

أ- ذاتية مميزة لليبرالية عن غيرها من المذاهب الفكرية الغربية التي ظهرت في عصر النهضة والتنوير، وهي أساسان هما: "الحرية" و "الفردية".

ب- مشتركة بين الليبرالية وغيرها من المذاهب الفكرية الغربية، وهي أساس واحد هو: "العقلانية"، فكل المذاهب التي ظهرت في أوروبا في العصر الحديث خرجت من الفكر العقلاني الذي يعتقد باستقلال العقل في إدراك المصالح الإنسانية في كل أمر دون الحاجة إلى الدين.

فالليبرالية حقيقة مركبة تركيبا تاما من "الحرية الفردية العقلانية"، ولكن هذه الأسس المكونة لحقيقتها مجملة، تعددت تصورات الليبراليين في تفصيلاتها الفكرية، فضلا عن آثارها العملية، والطريقة التطبيقية أثناء العمل السياسي أو الاقتصادي.

الأساس الأول: الحرية:

التي تعني أن الفرد حر في أفعاله، ومستقل في تصرفاته دون أي تدخل من الدولة أو غيرها، فوظيفة الدولة حماية هذه الحرية، وتوسيعها، وتعزيز الحقوق، واستقلال السلطات، وأن يعطى الأفراد أكبر قدر من الضمانات في مواجهة التعسف والظلم الاجتماعي.

الأساس الثاني: الفردية:

"الفردية هي السمة الأساسية الأولى لعصر النهضة، فها هو عصر النهضة يأتي كرد فعل لفكر القرون الوسطى، ويتحرر الفرد من الانضباط الكاثوليكي الطويل".

وقد ارتبطت الحرية بالفردية ارتباطا وثيقا، فأصبحت الفردية تعني استقلال الفرد وحريته.

وقد جاءت هذه الفردية بمفهومين مختلفين:

أحدهما: الفردية بمعنى الأنانية وحب الذات، وهذا المعنى هو الذي غلب على الفكر الغربي منذ عصر النهضة وإلى القرن العشرين، وهذا هو الاتجاه التقليدي في الأدبيات الليبرالية.

والثاني: الفردية بمعنى استقلال الفرد من خلال العمل المتواصل والاعتماد على النفس،

وهذا هو الاتجاه البراجماتي، وهو مفهوم حديث للفردية.

الأساس الثالث: العقلانية:

تعني العقلانية استقلال العقل البشري بإدراك المصالح والمنافع دون الحاجة إلى قوى خارجية، وقد تم استقلاله نتيجة تحريره من الاعتماد على السلطة اللاهوتية الطاغية.

ونلاحظ أن الاعتماد على العقل وتحييد الدين جاء بصورة متدرجة، ولكنه استحكم في عصر التنوير، وزاد ترسيخه كمصدر وحيد للمعرفة في القرن التاسع عشر الذي هو قمة الهرب الليبرالي. وقد أصبح الاعتماد على العقل المجرد وإقصاء الدين والقيم والأخلاق سمة من أبرز سمات الفكر الأوروبي المعاصر(١).

---

(١) حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها لسليمان الخراشي ص١٩-٢٣.

٥- دخول الليبرالية إلى العالم الإسلامي وأسبابه ومظاهره:

كانت أغلب البلاد الإسلامية تحت حكم الدولة العثمانية في عصر النهضة الأوروبية، وهي دولة قائمة على تحكيم الشريعة الإسلامية في الجملة، وقد تسللت الليبرالية إلى البلاد الإسلامية من خلال "الجمعيات السرية" التي كونها أفراد تأثروا بالفكر الغربي وانبهروا بحضارته المادية بسبب عوامل أضعفت ثقة الأمة بدينها، وهيئت المجتمع الإسلامي لتقبل الليبرالية وعدم مقاومتها، وهذه العوامل هي:

١- الانحراف العقدي.

٢- الاستبداد السياسي.

٣- الجمود والتقليد.

وهي ليست أسبابا مباشرة في وجود الليبرالية، ولكن هذه العوامل أوجدت أرضية متقبلة، ومناخا مناسبا للرضى بالليبرالية، والسكوت عليها.

ولا شك أن السبب المباشر لدخول الليبرالية في العالم الإسلامي هو "الاستعمار وأذنابه" من دعاة التغريب، والمنبهرين بالحضارة الغربية، ولكن دخولها لم يكن له أن يتم لولا وجود عوامل معينة ساعدت على عدم الوقوف الجاد في وجه هذه الأفكار الإلحادية.

فلما احتلت بلاد المسلمين فرضت الليبرالية عليها في النظام السياسي والاقتصادي، ولما رأى الاحتلال عدم تقبل المسلمين لأي أمر غير مرتبط بالإسلام جاء بفكرة "تطوير الإسلام وتحديثه "، ومن هذه الفكرة خرج "مشروع الإسلام الليبرالي"(١).

وكان لظهور الليبرالية في العالم الإسلامي أسباباً أهمها:

أولا: الانحراف العقدي:

الانحراف العقدي هو السبب المباشر في ضعف الأمة الإسلامية وتخلفها وانحطاطها، وتراجعها في القرون المتأخرة، وهي من باب العقوبة على الذنب بالمصيبة، ويدل على ذلك قوله تعالى: {إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد:١١]، وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ} [الأنفال:٥٣].

ومن أهم مظاهر الانحراف:

---

(١) حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها لسليمان الخراشي ص٥٩ – ٦١.

أ- ظهور الفرق الباطنية المنحرفة وآثارها:

والباطنية: اسم عام يدخل تحته عدد كبير من الفرق الكافرة في الحقيقة مع بقاء انتسابها للإسلام في الظاهر، ومنها: الإسماعيلية، والنصيرية، والدروز، والقاديانية، والبهائية، والرافضة لاسيما في العصور الأخيرة. وليس المقصود هنا بيان عقائدهم على التفصيل، ولكن المقصود بيان آثار هذه الفرق على المجتمع الإسلامي، فمن هذه الآثار:

١ - إشاعة العقائد الكفرية بين المسلمين، وإلصاق هذه العقائد بالإسلام، فهذه الفرق لا تدعي أنها أديان مستقلة عن دين الإسلام، بل يدعي أصحابها أنهم مسلمون مع المناقضة التامة بين عقائدهم وبين الإسلام.

٢ - تفريق صفوف المسلمين وإشاعة الفوضى والاضطراب فيها، وقد كان لهم دول وحكومات وحركات وجماعات، وقد قاموا بحروب طاحنة داخل المجتمع الإسلامي، وأشغلوا الدول الإسلامية بمقاومتهم ورد كيدهم.

٣ - التعاون مع اليهود والنصارى للكيد بالمسلمين؛ وقد كان لهم دور خبيث في إعانة الاستعمار ومساعدته في الاستيلاء على بلاد المسلمين.

ب- ظهور الإرجاء:

يعتبر الإرجاء من أخطر الانحرافات العقدية المؤثرة في حياة المسلمين، فمسألة الإيمان أهم مسألة عقدية لأنها أصل الدين وأساسه، وهي المعيار في معرفة المؤمن من الكافر، والموحد من المشرك، فالانحراف فيها لابد أن يكون له آثار عظيمة في المجتمع الإسلامي.

ج- ظهور التصوف:

ظهر التصوف في فترة مبكرة من تاريخ المسلمين، وتعود مصادره إلى نساك الهنود والفلسفة اليونانية الإشراقية، والزهد المسيحي وغيرها، وقد أطلق عليهم كتاب الفرق الأوائل اسم "الزنادقة"، ولا شك أن التصوف بصورته الراهنة ليس له علاقة بالزهاد والعباد الأوائل، بل هو بعيد كل البعد عن عقيدة الإسلام وسلوكه.

ثانيا: الاستبداد السياسي:

وقد وجدت أسباب ساعدت في نموه، وبررت لوجوده، ودافعت عنه، ودعمته حتى وصل إلى هذا الحد المزري في الأمة.

ومن هذه الأسباب:

١- ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢- انتشار عقيدة الإرجاء والجبر، وهاتان العقيدتان لهما تأثير كبير في ظهور روح الاستسلام للظلم، وتهوين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالإرجاء يبرر الطغيان ويعتذر له.

٣- دعم القوى الاستعمارية الأجنبية، والتي من مصلحتها بقاء الأمة الإسلامية تحت سلطة الأنظمة الاستبدادية.

ثالثا: الجمود والتقليد:

ولهذا وقفت الدولة العثمانية موقفا سلبيا من دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب، والعلامة الشوكاني، والشيخ الآلوسي وغيرهم، لأن علماء الدولة يعتمدون اعتمادا كاملا على المذهب الحنفي، وهو من أقوى المذاهب منعا للاجتهاد وأكثرها تعصبا، وأبعدها عن الواقعية لكثرة الافتراضات فيه، وقد زاد الأمر سوءا اعتمادهم على المذهب الماتريدي الكلامي في العقيدة، وعلى التصوف الغالي في السلوك.

وهذه الأمور الثلاثة (التقليد، والكلام، والتصوف) أحكمت غلق الباب في إمكانية عمل تجديدي من داخل المشيخة العلمية والسلطة السياسية في الدولة العثمانية.

رابعا: القوى الاستعمارية:

تعود العداوة العميقة بين أوربا النصرانية والبلاد الإسلامية إلى الاختلاف الديني، وهذه حقيقة قررها القرآن الكريم ويشهد بها التاريخ والواقع، يقول تعالى: وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ [البقرة:١٢٠]، ويقول تعالى: وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ [البقرة:٢١٧]، ولهذا وقعت الحروب الصليبية القديمة والحديثة.

وعندما تخلت أوروبا عن النصرانية كدين لاهوتي، واعتنقت الفكر الليبرالي المادي العلماني بقيت معها "روح التعصب الصليبية"، وهذا ما يفسر التعامل الصليبي لأوروبا مع البلاد الإسلامية مع أنها دول علمانية مادية ملحدة.

ويمكن الإشارة إلى جهود القوى الاستعمارية في فرض الليبرالية في العالم الإسلامي من خلال ما يلي:

١- إلغاء الحكم بالشريعة الإسلامية، واستبدال القوانين الوضعية بها، وذلك من خلال

حكومة نيابية دستورية على النمط الغربي.

٢- القضاء على التعليم الإسلامي، وتغيير مناهجه، وبناء المدارس الأجنبية، والمدارس التنصيرية في بلاد المسلمين بغرض التأثير على أبناء المسلمين ليسهل تقبل الأفكار الليبرالية، وتكسر الحواجز والعوائق دونها.

٣- القيام بإبراز الطوائف والمذاهب غير الإسلامية، باسم "حقوق الأقليات"، وهذا العمل وغيره يبدو غطاؤه الظاهر حماية الحريات ونبذ الطائفية والتعصب، ولكنه يبطن أمرا آخر وهو إبراز هذه الطوائف، وتوليتهم على المسلمين، وإضعاف الروح الدينية في المجتمع الإسلامي.

٤- تكوين جيل يحمل الفكر الليبرالي من أبناء المسلمين، وقد تم ذلك من خلال البعثات التعليمية، وبناء الجامعات المؤسسة على هذا الفكر، وجلب المستشرقين لها، ليكونوا أساتذة ومعلمين للجيل الجديد(١).

وأهم مظاهر الليبرالية في العالم الإسلامي ما يلي:

١- تنحية الشريعة الإسلامية عن الحكم والسياسة:

ومن أهم النماذج التطبيقية (العلمانية) وهي فصل الدين عن الدولة، وتنحية الشريعة وتطبيق القوانين الوضعية، وظهور ما يسمى (الإسلام العلماني).

والفصل بين الدين والدولة، واعتبار الدين شأنا شخصيا بينما الدولة أمرا مدنيا يبني على العقل والمصلحة من النقاط التي اتفق عليها كتاب المدرسة العصرانية الحديثة منذ أيام علي عبد الرازق في كتابه الإسلام وأصول الحكم وإلى زماننا المعاصر

فقد دخلت الليبرالية إلى البلاد الإسلامية بشكل تدريجي منذ أواخر عهد الدولة العثمانية، ولكن الدولة العثمانية رسخت الانحراف العقدي من خلال تبني الإرجاء والتصوف، وأهملت الشورى والمشاركة السياسية، وهذا ما جعل الدولة والمجتمع بحاجة ماسة للإصلاح، فبدأت المطالبة بالإصلاح في الدولة العثمانية، ولكن عملية الإصلاح لم تتم بالأسلوب الصحيح، حيث تم ذلك على الطريقة الأوروبية، وقد كانت البداية غير مقصودة لتطبيق الليبرالية كنظام سياسي في الدولة.

٢- السيطرة على الأموال والاقتصاد في العالم:

---

(١) حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها لسليمان الخراشي ص٦١ – ٧٧.

دخلت الليبرالية في اقتصاد الدول الإسلامية من خلال سيطرة الدول الرأسمالية الكبرى على الاقتصاد العالمي، ودمج بقية الدول فيه، والسعي لجعل الدول الصناعية مركز حركة المال في العالم، والدول النامية أطراف وحقول تجارب لهذه الدول، وهذا ما جعل الدول النامية في حالة خضوع كامل لتصرفات الدول العظمى الاقتصادية.

٣- تأويل عقائد الإسلام وأحكامه وأخلاقه ليتوافق مع التحديث الغربي، وهذا ما أصبح يعرف بالإسلام الليبرالي.

ومنها قضية الموقف من الآخر والاعتراف به من أهم القضايا التي يناقض فيها دعاة الإسلام الليبرالي أصول الدين وحقيقة الإسلام والولاء والبراء. فالأديان السماوية متساوية في الصحة والقبول – عندهم –، وهذا يقتضي عدم تكفير الآخر المنافي في أساس الدين.

ويتسع تعدد الحق عندهم إلى أن يصل إلى تصحيح الأديان الأخرى غير دين الإسلام، أو على الأقل عدم الجزم والتأكيد على أن عقائدهم باطلة.

٦- حقيقة موقف الليبرالية من الإسلام:

المعلم الأول: موقفهم من النص الشرعي

أ- تقديس العقل في مقابل التهوين من شأن النصوص:

من المسلمات الشرعية أن النص الشرعي هو المرجع وهو الحاكم في حياة المسلمين والعقل مصدر تابع له.

وقد تباينت مواقف هذه المدرسة المنحرفة التي تخالف أصول الإسلام من هذه القضية الكبرى وهي مرجعية الشريعة وتعظيم النصوص الشرعية فحصل منهم تعد وتهوين من شأن النصوص الشرعية لأنها هي العائق الكبير أمام ما يطرحونه من أمور تخالف الشرع صراحة فعمدوا إلى موقف سيئ من النصوص الشرعية يتجلى في القضايا الآتية.

ب - تقديم المصلحة المتوهمة على النص:

هذا الموقف المنحرف متفرع عما سبق من غلوهم في جانب العقل على حساب النقل حيث اعتقدوا أن العقل له الصلاحية الكاملة والأهلية التامة في أن يستقل بإدراك المصالح والمفاسد بعيدا عن نور الوحي وهذا بلا ريب مصادم للحق والحقيقة إذ إن العقل -كما ذكرنا آنفا- تابع للشرع وخاضع تحت حكمه فلا يجوز له حينئذ أن يتخطى ما حده الشرع زاعما أنه إنما يتبع المصلحة ويرد الإحسان والتوفيق بل الحكم الأول والأخير للشريعة.

ج- دعوى تعدد قراءات النص الواحد:

يعتقد الليبراليون أن النص الشرعي له قراءات متعددة وتفسيرات متنوعة وكلها صحيحة وهذه العقيدة من الفساد بمكان لأنها تفتح الباب على مصراعيه لكل مبطل أن يستدل على مذهبه الفاسد من النص الشرعي بدعوى (تعدد قراءات النص) ولا ريب أن هذا أصل خطير يسوغ زندقة كل متزندق وكفر كل كافر فالباطني مثلا الذي يفسر قول الله تعالى: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً} [البقرة: ٦٧] بأنها عائشة -رضي الله عنها- بناء على ذلك الأصل قوله حق، والذي يقول: إنها البقرة المعروفة قوله حق، ويطلق بعض الأئمة على هذا الأصل (دعوى عدم إفادة النص للعلم واليقين).

د - رد السنة صراحة لأنها لا تتوافق مع العصر ومتطلباته ومستجداته:

المعلم الثاني: موقفهم من قضايا العقيدة وأصول الدين الكبرى

موقفهم من قضايا التوحيد والإيمان:

يلوح في مقالاتهم التهوين والتقليل من شأن قضايا التوحيد، بل وصل الأمر ببعضهم إلى درجة الاستخفاف والسخرية بهذا الأصل العظيم الذي قامت من أجله السماوات والأرض.

كما أنهم حرفوا مفهوم الإيمان، وأخرجوه عن مدلوله الشرعي الذي جاء واضحا بينا في نصوص الوحيين، كذلك فإنك تلحظ في كتابات بعضهم النزعة الإلحادية المادية كقولهم: إن الطبيعة هي التي تعطي وهي التي تمنح!!.

كما أن موقفهم من قضايا الولاء والبراء والحكم بما أنزل الله هو التحريف والتبديل والتشويه لهذه القضايا العقدية.

المعلم الثالث: موقفهم من التراث والتاريخ الإسلامي

المتأمل في مقالات الليبراليين، الدارس لها بتفحص وتمعن يظهر له – بجلاء – أن موقفهم من التراث يتمثل في الجوانب الآتية:

الجانب الأول: وصم هذا التراث بالرجعية والتحجر والجمود على الماضي وعدم استشراف المستقبل، وبالتالي عدم جدواه في ظل المستجدات الحديثة.

الجانب الثاني: وصم هذا التراث بالتشدد والعنف والإقصاء واللاإنسانية، وأنه المنبع الأساسي للتفكير والتبديع والتضليل الظالم.

الجانب الثالث: وصم هذا التراث بعدم الموضوعية والانزواء عن الواقع، وأنه قائم على الخرافة والتنكر للعقل.

الجانب الرابع: وصم هذا التراث متمثلا في كتاب الاعتقاد بأنها كتب تجسيم وتشبيه.

الجانب الخامس: وصم هذا التراث بأنه نشأ نتيجة لدوافع وصراعات سياسية.

وأما موقفهم من التاريخ الإسلامي فقد دأب الليبراليون على تشويه التاريخ الإسلامي، وشن حملات التزوير والتخريب عليه ولم تقف هذه الحملات الضارية على عصر دون عصر بل امتدت لتشمل كافة العصور الإسلامية حتى إن الصفحات المشرقة في تاريخنا لم تسلم من ذلك.

المعلم الرابع: الموقف من الغرب عموما

المتأمل في مقالات هؤلاء الليبراليين، يجد أنهم مفتونون غاية الافتتان بالقيم الغربية والحرية حسب المفهوم الغربي وحدث والألم يعتصر قلبك عن إعجابهم شبه المطلق بالغرب بشكل عام، ووضعه مقياسا للحضارة والتقدم وحقوق الإنسان، ولنا أن نبرز موقفهم من الغرب، كما يلي:

١- تقديم حسن الظن بهم، وأنهم لا يكيدون للإسلام ولا أهله وأن المتدينين يعيشون عقدة المؤامرة.

٢- اتهام المسلمين بأنهم سبب العداء الذي يعيشه العالم الإسلامي مع الغرب.

٣- الدعوة إلى عدم المواجهة والمقاومة واتخاذ السبل السياسية والنقد اللاذع لمن يدعوا لمقاومة المحتل.

٤- الانبهار بالحضارة الغربية والإشادة بأصحابها.

٧- المصطلحات التي أطلقوها على أنفسهم أو أطلقت عليهم من غيرهم:

١-الليبرالية: تدعو إلى الحرية المطلقة وعبادة الفرد نفسه وهواه وشهوته وقد عبر عنها منظروها في الحضارة الغربية سواء في فرنسا أو في بريطانيا بأنها التفلت المطلق وهي أيضا تدعو إلى الحرية المطلقة التي لا تعترف بدين ولا نص مقدس ولا عادات ولا تقاليد ولا أي أمر يعيق الحرية الفردية.

٢-العصرانية: إشارة لتطويعهم نصوص الشريعة وأحكامها لتتوافق مع مستجدات العصر دون اعتبار لقداسة النص والمرجعية الشرعية وهي الكتاب والسنة.

٣-العقلانية: إشارة إلى تقديمهم وتقديسهم للعقل أو أنهم أهل عقل وحكمة ومن عداهم ليس لديه اهتمام بالعقل ويقصدون بذلك أصحاب الاتجاه السلفي تحديدا وتعاملوا مع العقل بالطريقة المنحرفة التي تعامل بها أهل البدعة عموما والمعتزلة على وجه الخصوص.

٤-التنوير: ظهر مصطلح التنوير (ENLIGHTENMENT) في القرنين السادس عشر والسابع عشر في أوروبا تعبيرا عن الفكر الليبرالي البورجوازي ذي النزعة الإنسانية العقلية والعلمية والتجريبية ويتضمن هذا الفكر نزعة مادية واضحة بعد إقصاء اللاهوت وذلك بإحلال الطبيعة والعقل بدلا من الفكر الغيبي

فالتنوير إذن، كمصطلح شائع في الحياة الفكرية هو مصطلح أوروبي النشأة والمضمون والإيحاءات بل إنه عنوان على نسق فكري ساد في مرحلة تاريخية من مراحل الفكر الأوروبي الحديث، حتى ليقال كثيراً في تقسيم مراحل هذا الفكر: "عصر التنوير".

٥-الفكر التجديدي: ويعنون به تغيير أصول الإسلام لا المقصود المتبادر من اصطلاح التجديد وهو إحياء ما اندرس من معالم الإسلام وأصوله فالمتمعن في كتب هذا التوجه يرى أنهم يدخلون في التجديد الابتداع في تغيير الإسلام وتغيير أصوله بما يتوافق مع الأهواء ويساير الواقع وتوجهات الأعداء ليقبلوا بهم.

الفصل الخامس :
الوجـــــودية

المراد بالوجودية :

الـوجـوديـة بالمعنى العـام ابـراز قيمة الوجود الفردي وهى مذهب «كير جارد» و «ياسبر ز» و «هيدجر» و «شستوف وبرد يائيف» وغيرهم ولهذا المذهب خصائص عامة جماعها ملاحظة الوجود وجها لوجه، من جهة ماهو وسط نعيش فيه ونفكر فيه تفكيرا فعليا(١).

والـوجـودية بالمعنى الخاص هى المذهب الذى عرضه جان بول سارتر فى كتاب الـوجـود والعـدم ونشره فى الجمهور بواسطة مسرحياته ورواياته ومقالاته . . وخلاصة هذا المـذهب أن الـوجـود متقـدم على المـاهية ،وأن الانسان مطلق الحرية فى الاختيار يصنع نفسه بنفسه، ويملأ وجوده على النحو الذى يلائمه . . وقد أحرزت مؤلفات سارتر ذيوعا جعلته الممثل الأول للوجودية فى فرنسا .

حقيقـــة الوجوديـــة :

أخطـر مافى الـوجـوديـة بعد نفي الألوهية ـ عبادة الذات، فهي تدعوا الإنسان إلى أن يستمتـع بوجـوده كل الاستمتـاع ويطلق لحريتـه العنـان، فيحقق لنفسه أكبر نصيب من المتـع والملذات . . ولقـد كان ظهـور الـبراجمـاتيـة مقـدمـة وتمهيـدا لها، فالبراجماتية تقوم على النفع المادي العاجل لكل فكرة أو عمل سواء كان ذلك للانسان أو الجماعـة، والوجودية تقوم على النفع المادي العاجل الذى يعود على الفرد فى ذات نفسه دون نظر الى الآخرين ـ المهم أن يحيى هو، وأن يعيش هو . . ولو على حساب الآخـرين . . فأسـاس الـوجـوديـة الذى تعتمد عليه هو أن الفرد هو الموجود الحقيقي ويرتبون على ذلك أنه لامعنى للقول بالطبيعة البشرية والقول بالاخلاق التى تفرضها هذه الطبيعة أو الأقدار التى رسمت لها طريقها قبل أن تبر ز الى عالم الوجود(٢) والفرد

---

(١) المعجم الفلسفى : ٥٦٥ .

(٢) بين الكتب والناس ـ عباس العقاد : ٢٦ ط بيروت .

هو الموجود الحقيقي فى الخارج والنوع الانساني لاوجود له الا فى عالم التصور والفروض الذهنية وعلى الانسان أن يوجد نفسه ولا يوجد الانسان نفسه فى هذا المذهب الضال ـ كما يقول سارتر الا باطلاق العنان لرغباته وشهواته بحيث يفعل مايشاء ويترك مايريد ولا يبالي العرف أو الدين وانما يتحلل من كل مايربطه بالمجتمع من نظم وقواعد وقوانين وعادات وتقاليد ويطلق نفسه على هواها تهيم فى كل واد، وترعى كل مايصادفها على طريقها من غير وعي أوتفكير أوتقدير لما تأخذ أوتدع ـ وسيان عند الوجودي أن يأخذ كل شيء . . أولا يأخذ شيئا وسيان عنده الشيء ونقيضه، فلاخير ولاشر، ولانور ولاظلام، ولاهدى ولاضلال . . فإن الوقوف عند اختيار شيء من الأشياء هو فى مذهب الوجودى قيد يقيده ازاء هذا الشيء وفى هذا جور على وجوده الذى يفقده اذا هو خضع لشيء ما، أوتقيد بشيء ما، فلا بيت ولازوجة ولا ولد، ولا وطن، ثم أولا وأخيرا ولا دين(١) .

ولذلك لاتبعد اذا سميت هذا المذهب بالفوضوية التى تحول الوجود كله الى عبث لامعنى له ولاغاية من ورائه وتستخف بالقيم الأخلاقية وترمي الى هدم القواعد التى يقوم عليها المجتمع الانساني ـ وتدعو الشباب الباحث عن اللذة الى الانغمار فيها والعب من كؤوسها واطراح كل مايدعوا إلى العفة أوالخلق أوالدين، ولذلك قام على أثرها جموع غفيرة من شباب أوربا وأمريكا تدعوا إلى العرى والخنفسة وتهيم على وجهها فى الطرقات تحت أسماء الهيبز و«الخنافس» وغيرها، وجميعهم فى مطلع الشباب، وقد تحولوا جميعا ذكورا واناثا الى قطعان من الحيوانات تأكل من الحشائش وتنام مفترشة الأرض متغطية بالسماء ـ لاعن حاجة ولاعن فقر، ولكن عن فلسفة مريضة دخلت فى رؤوس هؤلاء الشبان فمسختهم هذا المسخ(٢) .

---

(١) عبد الكريم الخطيب الفرد الفكري والتيارات العادية للإسلام بحث مقدم إلى جامعة الإمام.
(٢) المرجع السابق.

موقف الوجودي المادي من الدين والأخلاق :

والمـادي يحصـر حياتـه فى مرحلة واحـدة تلك التى يعيشهـا على ظهـر هذه الأرض، فهذه هى التى يعرفها ويعمل حسابها ـ ان كان لها حساب عنده أما ماوراء هذه الحيـاة من عبث وحسـاب وجـزاء وجنـة ونـار فهى عنـده أوهـام وظنون لايعير ها اهتماما ولايلقي لها بالا . .

ويـرى الـوجوديون أن الأديان هى التى تصور للناس حياة أخرى يهربون اليها من واقعهم الذى يعيشون فيه، والانسان الذى يعتقد بدين، انسان جبان فى نظرهم لأنه يفر من الواقع الى سراب خادع وأمل كاذب .

أمـا الشجـاع فهـو الـذى يخلع كل أرديـة الـدين والفضيلة والمعتقد ويخرج الى الحياة متجردا من كل ذلك ليعيش حياته ويحقق وجوده . . يقول جون بول سارتر «ان ماينبغي أن تكـون عليـه حيـاة الوجودي هى توديع مايسميه الجبناء وجدانا وضميرا، والاستجـابـة لداعي الحيـوانيـة، وتلبيـة كل ماتدعو اليه شهواته، ونبذ كل التقاليد، والتعـاليم الاجتـماعيـة ومـاتواطأ عليه الناس من الجهة الأخلاقية، وتحطم القيود التى ابتدعتها الأديان، والفلاسفة وتبنتها المدنية، ثم تطليق الماضي، وسلخ المرء نفسه منه متجها الى الأمام، الى المستقبل قفزا، الى المصير المحتوم، الى الهاوية، الى الموت والعـدم الأبـدي[١] . . ويقول «ان من لايستمع الينا ولايقبل حرية النفس من قيودها انما هو جبان[٢]» . ويقول بسكال[٣] «كل ماأراه فى الطبيعة هو موضع شك وقلق، ولو كنت لاأرى شيئا يدل على وجود خالق لكنت أنكر وجوده، ولو شاهدت آيات خالق فى كل شيء لاسترحت بالايمان ولكن ماأراه هو أكبر من أن أستطيع انكاره، وهو أقل

---

(١) إرادة الاعتقاد لوليم جيمس ترجم الدكتور محمد جاب الله : ١٢١ .

(٢) الوجودية المؤمنة والملحدة د. محمد غلاب .

(٣) بسكال بليز أحد أقطاب الوجودية وهو عالم رياضى ولا هوتى فرنسى ولد سنة ١٦٢٣ وتوفي سنة١٦٦٢ .

من أن يقنعني فأنا فى حالة تستوجب الشفقة[1] . وبذلك يظهر أن الوجودية مركز خطر من مراكز الغزو الفكري فى العالم الإسلامي بل أخطر دعوة ظهرت فى العصر الحديث لأنها تعمل على افساد الحياة والانسان كليهما . . وتسعى الى تحويل البشر الى قطعان من الحيوانات لاعقل لها ولا قلب ولا روح . . ولاضابط ولاقانون . . باسم الحرية المهلكة التى تتبناها . . وهذه الدعوة الخبيثة ولدت فى أحضان الصهيونية وهى التى غذتها ودفعتها الى العالم لتأكل بنارها كل معاني الانسانية فى الانسان، وتحيله الى هشيم تذروه الرياح . . ولقد كان جان بول سارتر أبا لهذا المذهب المشئوم، وهو يهودي أو نصف يهودي على الأقل كما يقول الأستاذ العقاد ثم صار اليهود دعاتها والمبشرين بها من بعده .

ولقد عارض النظرية الوجودية مفكرون غربيون كثير ون ، وحصروا أخطارها فى عدة نقاط أساسية :

١ ــ أنها تجعل الانسان فى عزلة عن الجماعة .

٢ ــ أنها تستطيب ابراز القبيح من جوانب الطبيعة الانسانية وتدعوا الى الانحلال .

٣ ــ أنها تبطل الأوامر الالهية، وتنكر القيم الخالدة .

٤ ــ أنها تدعوا الى اليأس المطلق، والتشاؤم الكلي، وتدعوا الى هدم الحياة .

٥ ــ أنها دعوة الى التمرد على الواقع والقيم جميعا، ترفض كل مايتصل بالغيبيات والنفس الانسانية، وتقف عند الايمان باللحم والدم .

٦ ــ أنها تنكر محصول البشرية من القيم والتجارب وتدعوا الى أن يبدأ الانسان من جديد .

٧ ــ تحتقر الدين والعلم والأخلاق .

٨ ــ ليس فيها نقطة واحدة تفتح الطريق أمام التقدم، أوبناء الحياة، أوالعمل من أجل مجتمع أفضل .

---

(١) الوجودية المؤمنة والملحدة د. غلاب ويلاحظ أن بسكال اختار الايمان بالله . ولكن كيف يصح ايمان أساسه هذا الشك الوجودى ؟

٩ ــ هى فلسفة موغلة فى الفردية، تنكر الحقيقة الموضوعية للواقع الانساني .

١٠ ــ الأخلاق الوجودية هى أخلاق المرض . . القلق، القنوط، التشاؤم، الغموض، الأنانية المفرطة .

١١ ــ تعمل على تفويض المجتمعات، وهدم الأمل والخلق والغيرة، ومعارضة الشجاعة والتضحية[١] .

وقد عارض الباحثون هذه المفاهيم، وكشفوا زيفها، ووصف الدكتور روجيه جارودي ـ الذى كان شيوعيا وأسلم ـ الوجودية فقال : «الوجودية فلسفة الاستعمار، فلسفة هدم لابناء، فلسفة تدمير للشخصية الانسانية، فلسفة اسقاط النفس الانسانية فى مجال اللذة والشهوات بحيث تصبح غير قادرة على الدفاع عن نفسها أوتركيز وجودها، فلسفة مادية تستهدف الاستمتاع السريع خشية الموت[٢] .

(١) الإسلام والدعوات الهدامة ـ أنور الجندى : ١٩٤ .
(٢) المرجع السابق ١٩٩ .

نقد الوجودية مع بيان موقف الإسلام من مبادئها

بين حرية الإسلام وفوضى الوجودية :

تنطلق الوجودية باسم الحرية ـ بمنظار تشاؤمي وغير أخلاقي تهمل العقل . . وتحارب الدين والفضيلة وتفسد الحرث والنسل وتشيع الفساد . . فما هو التصور الصحيح والتطبيق السليم للحرية ؟

الحرية فى مفهوم الإسلام هى استعمال حقك المشروع بحيث لايطغى على حقوق الآخرين . . وذلك مرتبط بالعبودية لله رب العالمين والاذعان الكامل لطاعته وتحليل حلاله وتحريم حرامه ومادام الانسان ضمن اطار العبودية لله فهو يملك كامل الحرية ولو كان فى سجن حرم فيه بعض الحقوق لأنه يملك نفسا لم تتعبد للشر والباطل . . بل تحررت منها ىتتعبد للحق والخير وحدهما . . وفى هذا يقول سلفنا الصالح «فى العبودية لله تمام الحرية، وفى الحرية تمام العبودية، فالإسلام هو الذى يحقق الحرية الحقيقية للناس . . بتخليصهم من عبادة العباد الى عبادة الله . ومن جور الحكام الى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا الى سعة الآخرة . .

فليس معنى الحرية أن يعمل الانسان مايشاء أو أن يرتكب من المنكرات مايريد دون أن تحد تصرفاته آداب، أوتقيد أفعاله ضوابط . . انها عندئذ تنقلب الى فوضى .

ومن هنا كان خطأ الاتجاهات التى انتشرت فى المعسكرين الغربي والشرقي تطلق الحرية على كل انفلات من مدار الحق والخير مادام ذلك يخدم رغبات الانسان وشهواته الجسدية . . وهذا الفهم السيء للحرية يؤدي الى تدمير النفس وتدمير الآخرين ـ لأن الخلية المريضة لايقتصر مرضها عليها وانما يتعداه الى الآخرين . . وهذا المفهوم أيضا تزوير باطل لمعنى الحرية، والذى جر الفوضى والفساد والاضطراب

---

(١) سورة يسٓ : ٦١.

الى حياة تلك الأمم وهو مالا نرضاه لمجتمعنا الإسلامي المرتبط بأمر الله وطاعته ﴿**وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم**﴾(١) .

فالحرية فى الإسلام تتيح للانسان استعمال كافة حقوقه مادام ذلك فى اطار الشرع . . ومن ثم فلا يتعدى على جسمه ولانفسه ولاماله ولاعرضه ، وحرية النقد والقول والتعبير عما فى نفسه مصونة ، وحرية التصرفات له مصونة . . مادام كل ذلك يتم بقصد اشاعة الحق والخير والعدل . . ولضمان ذلك وتنظيمه جاء الإسلام بالأحكام ، وشرع القوانين والأنظمة .

ولقد ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلا من أروع الأمثلة بين لنا فيه الحد الفاصل بين الحرية والفوضى بقوم كانوا فى سفينة وكان بعضهم أعلاها وبعضهم فى أسفلها وكان الذين فى أسفلها يأخذون الماء ممن فوقهم ويمرون عليهم . . فقالوا لماذا لانخرق فى مكاننا خرقا نأخذ منه الماء من البحر رأسا ولانؤذي من فوقنا ، قال عليه الصلاة والسلام : فان تركوهم ومـا أرادوا هلكوا جميعا وان أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا(٢) .

فهؤلاء لما أرادوا أن يستعملوا حريتهم الشخصية كما يحلوا لهم بين عليه الصلاة والسلام أنه اذا لم يؤخذ على أيديهم كان فى ذلك هلاك السفينة بمن فيها . . وهذا هو الذى تريده الوجودية للمجتمع الانساني بأسره . . اشاعة الخنا والفجور والانطلاق دون حدود أوقيود كما تنطلق البهائم لاتلوي على شيء ويكون فى ذلك حتفها . . والمجتمعات الإسلامية اذا لم تضبط أمورها بتعاليم الشرع ويؤخذ على أيدي السفهاء أضر ذلك بالمجتمع . .

جاء فى كتاب الحرية فى الدول الاشتراكية أنه لوقام مجتمع من النساء الحريصات على استقلال جنسهن بتكوين جماعة تدعوا أوتمارس بين أنفسهن نظرية التناسل بدون رباط زواج فليس من حق الدولة أن تتدخل فى أعمال تلك الجماعة(٣) . هكذا يريد أنصار الحرية الشخصية والسلوك الفردي أن ينطلق الناس فى الحياة

---

(١) سورة يس : ٦١ .

(٢) صحيح البخاري .

(٣) الكتاب المذكور : ١٣٥ .

كالحيوانات دون وازع من خلق أورادع من قانون، ولا شك أن الإسلام يحمي أهله من هذا السقوط ويرفض بحزم أن تنطلق مثل هذه التصرفات باسم الحرية الشخصية ويرى أن هذا مرضا يجب بتره بكل قوة حفظا على العفة والفضيلة وحرصا على بقاء مجتمعه . .

وإنما الأمم الأخلاق مابقيت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولذا رتب عقوبات معينة على هذا النوع من المخالفات .

وفي سنة **١٩٢٨** عقد في فيينا مؤتمر مكافحة المسكرات وكان ماقرره مطالبة الحكومات بعقوبة شارب الخمر عقوبة بدنية اذا سكر وأصبح ثملا لأنه يؤذي الناس في شعورهم، وقد يتلفظ بما يمس كرامتهم وعلل المؤتمر ذلك بقوله «ليست الحرية هي مايفهمه الجمهور من أن يفعل الانسان مايشاء بل أن تقيد حرية الفرد لضمان حرية المجتمع هو المفهوم الصحيح لمعنى الحرية، ومادام السكران يؤذي حرية الآخرين فان تقييد حريته وعقوبته هي تطبيق للحرية بمعناها الصحيح» .

وهذا الذى بدأ الغرب يتنبه له هوماجاء به الإسلام منذ أربعة عشر قرنا . . فما أعظم الفرق بين مفهوم الحرية السليم الواضح عند المسلمين، وبين مفهوم الحرية الفوضوى المدمر عند غير المسلمين .

إن فهم الوجودية وغيرها مما يشابهها من مذهب الغرب للحرية مخالف لعقائدنا وقيمنا وتعاليمنا وتقاليدنا . . فالحرية عندها حرية تفتح الباب للفرد لأن يفعل مايشتهي دون قيد أوشرط يراقص ويقامر ويشرب الخمر ويسكر ويزني . . ويفعل الموبقات ولا لوم عليه من عرف ولا مؤاخذة من قانون، لأنه في نظرها ـ والحالة هذه ـ يمارس حقه . . المهم ألا يؤذي أحدا . . وتلك حرية الغريزة الحيوانية لاحرية الارادة الانسانية، وارخاء العنان لشهوات الانسان بهذه الصورة انحلال كبير لايقره دين وهدم للانسان والمجتمع معا اذ أنهما متداخلان مترابطان يؤثر كل منهما في الآخر . . فاذا فسد جانب فسد الثاني . .

أما الحرية عندنا فهي حرية في حدود القيم والفضائل وفي نطاق الأخلاق والدين الذى يقوم عليه بناء المجتمع . . وهي حرية تسمو بالانسان وتصونه عن التدني الى أسفل .

وفى محاضرة لروجيه جارودي بعنوان «قضايا الإسلام فى الدولة الأوربية» قسم الحرية الى قسمين . . حرية حيوانية غير عاقلة، وحرية انسانية عاقلة . . وقال : ان الحرية السماوية تلبى حاجات انسانية محضة، أن حرية الانسان لاتتأتى من ممارسة للفوضى والهدم، بل من الحرية المسئولة أمام القيم الأخلاقية وأمام الله، لذا فان العبودية لله الواحد هى الحرية بعينها . . ولقد تحرر العربي المسلم حين مارس هذه الحرية فى اطار تعاليم الإسلام، فالله أمر المؤمن أن يفكر وأن ينتقد الخطأ ولايسكت عليه، ويقوم المنكر اذا رآه بيده وبلسانه وبقلبه، ثم حث الانسان أن يعمل ذهنه ويفكر فى معرفة أسرار الكون، ولهذا كله تحرر الانسان المسلم من العبودية الا لله وحده، ومارس أرقى أشكال الحرية الفردية والاجتماعية فى اطار من الوعي . . غير أن أوربا والفكر المادي الأوربي والقوانين الأوربية سلبت الانسان حريته فأخضعته ووهنته، وجعلته عبدا للآلة والاستهلاك والسلعة»[١] .

ثم إن من مقاصد الإسلام العمل على تحقيق الحياة الطيبة للناس التى يشبعون فيها من جوع ويأمنون من خوف ويتعلمون من جهل، ويستمتعون بخيرات الله فى الأرض ولذلك أطلق فيهم كل قوى الخير والبر لتعمل فى كل ميدان، وتقطف من ذلك خيرا معجلا وثمرا طيبا أنفع للناس وأعظم بركة مما يقدمه الماديون والملحدون الإسلام ليس عدو المال وليس عدو المتع والمنافع الا حيث يكون ذلك مهداة للفتنة أو مزلقا للضلال . . **﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾**[٢] . **﴿ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون﴾**[٣] . **﴿ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ماأحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتدين﴾**[٤] .
لقد أطلق الإسلام كل المواهب والطاقات لتستفيد بفرصة وجودها فى الحياة

(١) انظر خلاصة لهذه المحاضرة فى «الشرق الاوسط» ٢٥/٣/١٩٨٣ .
(٢) سورة الاعراف : ٣١.
(٣) سورة البقرة : ١٧٢.
(٤) سورة المائدة : ٨٧.

الدنيا وتنتفع بخيرات الله فى الأرض ولكن دون سرف وطغيان، ودون اعتداء أوظلم «كل ماشئت والبس ماشئت فى غير سرف ولامخيلة» .

قال الإمام ابن القيم «ماحرم الله على عباده شيئا الا عوضهم خيرا منه، كما حرم عليهم الاستقسام بالأزلام وعوضهم منه دعاء الاستخارة، وحرم عليهم الربا وعوضهم منه التجارة الرابحة، وحرم عليهم القمار وأعاضهم منه أكل المال بالمسابقة النافعة فى الدين بالخيل والابل والسهام، وحرم عليهم الحرير وأعاضهم منه أنواع الملابس الفاخرة من الصوف والكتان والقطن، وحرم عليهم الزنا واللواط وأعاضهم منها النكاح الحلال بصنوف النساء الحسان. وحرم عليهم شرب المسكر وأعاضهم عنه بالاشربة اللذيذة النافعة للروح والبدن، وحرم عليهم سماع آلة اللهو من المعازف والمثاني، وأعاضهم عنها بسماع القرآن والسبع المثاني، وحرم عليهم الخبائث من المطعومات، وأعاضهم عنها بالمطعومات الطيبات . .

ومن تلمح هذا وتأمله هان عليه ترك ماحرمه الله ونهى عنه، وعرف حكمة الله ورحمته وتمام نعمته على عباده فيما أمرهم به ونهاهم عنه، وفيما أباحه لهم، وأنه لم يأمرهم به حاجة منه اليهم، ولانهاهم عنه بخلا منه تعالى عليهم، بل أمرهم بما أمرهم احسانا منه ورحمة، ونهاهم عما نهاهم عنه صيانة لهم وحمية[1] . فلك الحمد ربنا على ماأنعمت وأوليت **﴿مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾**[2] .

ومن حق الله تعالى وهو المنعم المتفضل بالخلق والرزق أن يتعبد عباده بما يشاء من التكاليف دون أن يسأل عما يفعل، فذلك حق ربوبيته جل وعلا . ولكن من رحمة الله بخلقه ولطفه بهم أنه جعل التحريم يتبع الخبث والضرر فما يعود علينا بالمصلحة

---

(١) بتصرف يسير من روضة المحبين : ٧١ ط حلب.

(٢) سورة المائدة : ٦.

والفـائـدة أحله ، ومـايعـود بالخبث أو الضرر حرمه ﴿**والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم ان الله عزيز حكيم**﴾[1]. ﴿**يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات**﴾[2] .

فالله لم يحل الا الطيب النافع ، ولم يحرم الا الخبيث الضار ولهذا كان من أوصاف الـرسـول ﷺ عنـد أهـل الكتـاب أنـه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم[3] ـ البديل الواسع والعوض الطيب الذى يسد مسد الحرام ويغني عنه .

والإسـلام عنـدمـا يضـع للانسان ضابطه على طريق مسيرته فى الحياة أويحرم عليه شيئا فذلك لمصلحته ونفعه ، وحمايته من شهوات نفسه التى قد توروده موارد الردى ان اشـارات المـرور فى الشوارع لم توضع لتعطيل الناس أوشل حركتهم ، وانما وضعت لحمايتهم وتنظيم مسـيرتهم . . وإذا أطلق للانسـان كل عنـان ، وتـركه وشأنه فى الحياة يأخذ من دنياه كل ماهو متاح له دون ضابط من دين أوقيد من شرع أوقانون ودون نظر الى شيء وراء هذه الحيـاة الـدنيـا ـ كما تريـد الوجودية أوالبرجماتية هبط الانسان الى مستـوى الحيـوانيـة . وصـار له طبع البهائم التى تعيش لتأكل فقط . . وهذا المستوى لايـرضـاه الإسـلام لبنيـه ﴿**والـذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم**﴾[4] .

ان الحياة الطيبة مطلوبة فى نظر الإسلام لكن طلب الوسائل لاطلب الغايات ، فهي معـوان على طاعـة الله وعبـادتـه التى خلق لها المكلفـون جميعـا . . ولذلك فان الإسـلام وان كان من مقـاصـده تحقيق الحيـاة الطيبة للناس . . الا أنه يريد منهم ان تكون وجهتهم الله والدار الآخرة ، ولايقفوا عند حد التمتع بطيبات الدنيا وشهواتها ، فان الـدنيـا خلقت للنـاس ولكن النـاس خلقـوا لعبـادة الله وحده ﴿**وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون**﴾[5] .

---

(١) سورة البقرة : ٢٢٠ .

(٢) سورة المائدة : ٤ .

(٣) سورة الاعراف : ١٥٧ .

(٤) سورة محمد : ١٢ .

(٥) سورة الذاريات : ٥٦ .

الفصل الرابع :
البراجماتيـــــة

مذهب فلسفي وضع أساسه تشارلس بيرس (١٨٣٩ ـ ١٩١٤)[١] وكونه الفيلسوف الأمريكي وليم جيمس (١٨٣٢ ـ ١٩١٠) ثم عدله جون ديوى ويتلخص المضمون الفكري للمذهب فى أنه يقيس القضية بنتائجها العملية . . فالفكرة تقاس بنتائجها التى تؤدى اليها تلك النتائج هى برهان صحة الفكرة، فاذا كانت الفكرة وسيلة والعمل نتيجة أو غاية فان الغاية تبرر الوسيلة، ولذلك يطلق على المذهب النفعية أو الذرائع والوسائل . . وكان جون ديوى يفضل التسمية الأخيرة ولما كان تقدم العلم يغير كثيرا من القضايا فإن الصالح فى ظروف سابقة قد يصبح غير صالح فى الظروف الراهنة . . ويأخذ المذهب من ذلك أنه لاثبات لشيء من القيم والأخلاق فى دنيا الناس والحق هو سبيل ناجح فى الوصول بالانسان الى غرضه وهو أمر نسبي يقاس بزمانه ومكانه ومعيار الحقيقة هو نجاح الفكرة .

يقول جون ديوى: «انى أؤكد على سبيل الجزم أن لفظ براجماتى لايعنى الا قاعدة ارجاع كل تفكير وكل الاعتبارات التأملية الى نتائجها للمعنى النهائى والاختبار على محل التجريب[٢] .

فهنا أمور ثلاث :ـ

الأول : أن برنامج المذهب يربط الفكرة بنتائجها العملية أكثر مما يربطها بمعيارها القيمى والتفقه العلمي لمضمونها . . أي أنه يعدل عن الأفكار المجردة والمعاني النظرية ويحصر هذه الأفكار والمعاني فى آثارها فالفكرة هى خطة للعمل والنشاط وليست حقيقة فى ذاتها . فعندى مثلا فكرة عن نفير السيار التى تسير فى الشارع . لامعنى لأن أبحث فى حقيقة هذه الفكرة: أصلها ومنشؤها هل هى حقيقة أم من خلق العقل؟ وهل هى من عمل الاذن والجهاز العصبى أم من عمل النفير أو السيارة أوغيرهما؟ . وإنما يجب أن يكون معناها الانحراف يمينا أويسارا وافساح

---

(١) فيلسوف أمريكي .

(٢) قاموس جون ديوى للتربية : ٤٥ .

الطريق للسيارة وراكبها، معناها أن أشرع فى تغيير خطة سيرى والتوجه الى جهة غير التى كنت أسير فيها ومن هذا تزعم البراجماتزم أن الفكرة هى مشروع للعمل أوخطة للتأثير فى البيئة وهى خطوة فى سبيل العمل لها مابعدها(1).

الثـاني : أن صواب الفكـرة لايتـوقف على الضـرورات المنطقيـة لها أوعلى قيمتها الذاتية ومضمونها الواعي . . وانما يتوقف على صلاحية هذه الفكرة فى حياتنا الـراهنـة ومـدى ماتحققه من نفع مادي فى تصرفاتنا اليومية فى اختباراتنا . . فاذا كانت هذه الفكرة تؤدى الى نتائج مرضية ومنافع علمية فى الحياة فهي صحيحة وصائبة والا فلا(2) .

الثالث : أنه لما كانت الفكرة تقاس بنتائجها وكانت النتائج محصورة فى المنفعة فان المنفعة الظاهرة بذلك تصبح وحدها المحكَّمة لافى قبول الاشياء أو رفضها فقط، بل أيضـا فى تصـور وجـودهـا أوعدمهـا . وقـد لاتبدو خطورة المذهب من خلال تأمل النقطة الاولى وان كانت تولد نوعا من السطحية وعدم العمق فى الأمور .

إلا أن الخطـورة تكمن عنـدمـا نتابع هذه الفلسفة فى نتائجها البعيدة فنجد من خلال تأملنـا للنقطـة الثـانيـة أنهـا تؤدي فى النهـايـة الى جحد الالوهية وان كان هذا ماصـرح به فلاسفـة البراجماتزم . . لأننا حين نسير مع فلسفة هذه النقطة الى النهاية نجد أن قيمة الفكرة فيها تولده من منافع ظاهرة فى الحياة المادية ولما كانت «الفكرة عن الله» فى نظر هؤلاء قد يأتى عليها حين لاتؤدي وظيفة ظاهرة فى الحياة المادية فعندئذ تنبذ الفكرة أساسها لأنها لا تدير آلة ولاتحرك جهازا(3) .

وبذلك يكون الكفران والضلال . . فاذا تابعنا النظر الى النقطة الثالثة وجدنا أن النفـع المـادي العـاجل هووحده المسيطر على اتجاه فلسفة هذا المذهب أي أن أي

---

(1) العادات الاجتماعية : ٢٥٨ نقلا عن البراجماتزم أوفلسفة الذرائع د. يعقوب فام .
(2) المرجع السابق .
(3) نفسه : ٢٥٨ .

فكرة أو عمل عند البراجماتيين انما يقاس صلاحه وفساده وخيره وشره بما يحققه من نفع مادي عاجل . . وسيطرة مثل هذه النزعة على سلوك الناس فى الحياة يحولهم الى ذئاب ذوى أظفار وأنياب لايتعاملون الا بالمادة ولا يتواصلون الا حيث يكون نفع . . ويوم تكون المنفعة غاية لكل حركة وهدفا لكل علاقة فما أشقى الحياة يومئذ لأن تلك مرحلة تفقد فيها البشرية كل مقوماتها الكريمة وعناصرها الانسانية ويستوى فيها الانسان بالآلات وتغيب جميع مبادىء البر والعطف والرحمة والمواساة وسائر الامور المعنوية التى تهذب الحياة وترطب جفافها ويخلو كيان الانسان من العواطف والمشاعر والانسانية من حب وود ولا أريد أن استرسل أكثر من ذلك فى مناقشة هذه الفلسفة وبيان عوارها وفسادها ومناقضتها لمبادىء الإسلام العادلة الرحيمة بعد أن عرفنا موقف هذه الفلسفة من الدين فما دام الأصل منهارا . . فكل بناء بعده لاقيمة له .

الأخـلاق عند البراجماتزم :ـ

تنظر البراجماتية الى الاخلاق نظرة مادية بحته . . فالاخلاق والقواعد التى تضبطها من صنع الناس وحدهم وهى تجريبية متطورة من آن لآخر على مر الزمن ولاثبات لها ولايقين على الاطلاق، وهى تتغير كلما تغيرت متطلبات الجماعات ورغائبها، والقانون الحق، هوما يعتقده الرأي العام ولذلك فان معيار الصواب والصدق بالنسبة للاخلاق وقواعدها هو الرأي العام . . ولذلك فهي قابلة للتغيير كلما تغير الرأي العام .

يقول جيمس : «ان علم الاخلاق فيما يتعلق بالناحية المعيارية مثل العلوم الطبيعية فى أنه لايمكن استنباطه كله مرة من مبادىء ذهنية، بل لابد أن يخضع للزمن وأن يكون مستعدا لأن يغير نتائجه من آن لاخر . . والآراء الذائعة حق وأن القانون المعياري الحق هوما يعتقده الرأي العام(١).

وبناء عليه يمكن أن ينتشر الفساد وتعم الرذيلة ويعد ذلك ضمن الاخلاق مادام يعتقده الرأي العام الا قاتل الله الأفاكين .

---

(١) ارادة الاعتقاد ـ وليم جيمس : ١٠١ .

ويقول جون ديوى : «كل الاحكام الاخلاقية تجريبية ومن ثم خاضعة للمراجعة»(١). فما يثبت اليوم يتغير غدا وما يتغير غدا يثبت بعد غد . . وهكذا لايكون هناك أي ثبات لقيمة من القيم ومعروف من بديهيات الإسلام فساد هذه النظريات فالفضائل ثابتة والاخلاق لاتتغير فالصدق فضيلة فى كل زمان والكذب رذيلة فى كل آن ومعيار الاخلاق عندنا هو الشرع وما جاء على لسان النبى ﷺ . والإسلام يكره التلون والتغير ويحب الثبات على الفضيلة والمبدأ وان تغير الناس من حول الانسان، وفى الحديث : «لاتكونوا إمَّعة تقولوا إن أحسن الناس أحسنا وإن أساءوا أسأنا ولكن وطِّنوا أنفسكم إن أحسنوا وإن أساءوا ألَّا تظلموا»(١).

موقف البراجماتية من الدين :ــ

يكفينا هنا لنعرف موقف البرجماتية من الدين أن نتذكر البيان الذى صدر فى أمريكا سنة ١٩٣٣ ووقعه جون ديوى وآخرون والذى سبق ذكر أهم نقاطه عند الحديث عن الفلسفة الوضعية ومنه يتضح لنا فكرة البرجماتزم عن الأديان المنزلة، ومن النقاط المذكورة فى هذا البيان :ــ

١ ــ الكون موجود بذاته وليس مخلوقا .

٢ ــ الانسان جزء من الطبيعة وهو نتيجة عمليات مستمرة فيها .

٣ ــ ثقافة الانسان الدينية ليست الا نتاج التطور التدريجي الناشىء من التفاعل بين الانسان والبيئة الطبيعية والوراثة الاجتماعية .

٤ ــ لقد ولى الزمن الذى كان يعتقد الناس فيه بالدين وبالله .

٥ ــ يتركب الدين من الافعال والتجارب والاهداف التى لها دلالات فى نظر الانسان ومن هنا زال التمييز بين المقدس والمادي .

ولعلك بهذا تقف على أن البرجماتية بمبادئها تلك التى تعمل على تطبيقها فى جوانب التربية والدين والاخلاق تعتبر من العوامل الاساسية فى انهيار المجتمعات التى تطبق فيها .

---

(١) قاموس جون ديوى للتربية ـ ترجمة محمد على العريان : ٢٨ .

(٢) الترمذى عن أبى حذيفة ـ انظر الفتح الكبير ج ٣/٣٣٩ .

نقد البراجماتية مع بيان موقف الإسلام من مبادئها

أولا : الشريعة الإسلامية جاءت لخير الناس ونفعهم :ـ

اذا كان الفكر الغربي قد حاول أن يعالج مشاكل البيئة والانسان عنده ويرسم لذلك خططا للفكر والسلوك فقد عالج ذلك بأسلوب بعيد عن أنوار الوحي وحقائق التنزيل، ولذلك أتى فى هذا الجانب بنظريات وحلول مستوحاة من عوامل البيئة هناك كلها تخبط واضطراب ثم أخذ يخدع أمم الشرق بكلمات خادعة وعناوين براقة لاتنطلى الا على الاغرار والسذج مثل القول بالحرية والمنفعة والواقعية وغير ذلك .

والبراجماتية من المذاهب التى اتخذت لها راية تلوح بها لتوقع الناس فى شركها وهو القول بالنفعية أو الحرص على مصلحة الانسان وتلك غاية تهفوا اليها نفوس كثيرة، ولكن أية مصلحة تلك التى تنادي بها البراجماتية ؟.

لقد سبق أن رأيت البراجماتية فوق أنها تجحد الالوهية والرسالة تجعل النفع المادي العاجل هو أساس تقويم أية فكرة أو عمل وتسوق الانسان الى أن يجعل مصلحته فوق مصالح الآخرين . . ولو أضر ذلك بهم أي أنه هو وحده وليكن بعده الطوفان، ومثل هذا السلوك لايتناسب حتى مع عالم الحيوان .

أما الإسلام فقد جاء لخير كل الناس ومصالح كل الناس ونفع كل الناس خير لاشر فيه ومصالح لاجور فيها ونفع يسوده الايثار والمحبة وطهارة الوسيلة والغاية .

ولقد أثبت الاستقراء أن احكام الشريعة الإسلامية انما تقوم على المصلحة الانسانية .

ثانيا : نصوص لبعض مفكري الإسلام تؤكد أن الشريعة تراعي المصلحة :ــ

يقول الشاطبي : «ان احكام الشريعة ماشرعت الا لمصالح الناس وحيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله»(١).

كما يقول ابن القيم «ان الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذى قامت به الارض والسموات فاذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأي طريق كان فثم شرع الله ودينه»(٢) .

وفى عبارة أخرى لابن القيم عن الشريعة الإسلامية يقول : «ان مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد فى المعاش والمعاد، وهى عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، فكل مسألة خرجت من العدل الى الجور وعن الرحمة الى ضدها وعن المصلحة الى المفسدة وعن الحكمة الى العبث فليست من الشريعة وان أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه»(٣).

وقال العز بن عبد السلام «ان الشريعة كلها مصالح اما درء مفاسد أو جلب مصالح»(٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية «ان الشريعة الإسلامية جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها»(٥) .

وقرر علماء الأصول أن الأحكام التكليفية فى الشريعة ترتبط بالمصلحة ارتباطا وثيقا، ومراتب التكليف نفسها تختلف باختلاف مافيها من مصالح، فالأمر الذى تتيقن المصلحة فيه يكون طلبه حتميا . . ثم يتفاوت الطلب وجوبا وندبا واباحة تبعا لتفاوت المصلحة فيه . . كذلك مايكون الضرر فيه مؤكدا يكون محرما، ثم يختلف

---

(١) الموافقات ج ٢/ ٦.

(٢) الطرق الحكيمة.

(٣) أعلام الموقعين ج ٣/ ١.

(٤) القواعد للعز بن عبد السلام ج ١/ ٩.

(٥) منهاج السنة النبوية ج ١/ ١٤٧ ـ ج ٣/ ١١٨.

التحريم قوة وضعفا باختلاف قوة الضرر . . ومن ثم كان المحرم والمكروه متفاوتا أيضا فالمكروه تحريما والمكروه تنزيها . . وهكذا . .

قال أبو حامد الغزالي فى المستصفى «ان جلب المنفعة ودفع المضار مقاصد الخلق وصلاح الخلق فى تحصيل مقاصدهم، لكننا نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة وهو أن يحفظ عليهم دينهم وأنفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل مايضمن هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل مايفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة، وهذه الأصول الخمسة حفظها واقع فى رتبة الضرورات فهي أقوى المراتب فى المصالح[1] هذا جانب .

ثالثا : نصوص من السنة أيضا :ـ

وجانب آخر . . وهو أن الإسلام الذى جاءت لخير الناس ونفع الناس طلب أن يشيع هذا الخير بين الجميع، وألا يتحرك المسلم من منطلق مادي . . خذ وهات .

فأين الايثار اذن ؟. وأين التعاون وبذل الفضل ؟.

لقد دفع الإسلام أتباعه الى صنائع المعروف وعمل الخير وطلب منهم الا ينتظروا الأجر الا ممن لاتضيع عنده الصنائع **«وماعند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون»**[2]. **«لاخير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما»**[3]. **«فاستبقوا الخيرات»**[4]. **«وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لاتظلمون»**[5].

---

(١) الكتاب المذكور.

(٢) سورة الشورى : ٣٦.

(٣) سورة النساء : ١١٤.

(٤) سورة البقرة : ١٤٨.

(٥) سورة البقرة : ٢٧٢.

«ويطعمـون الطعـام على حبـه مسكينا ويتيما وأسيراً * إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاءا ولاشكورا»(١) . **«لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وماتنفقوا من شيء فإن الله به عليم»**(٢) .

ولقـد جهـد الأنبياء جميعا صلوات الله وسلامه عليهم لاشاعة الخير والايمان فى جنبات الارض دون انتظارعون من أحد . . الا من الله وحده . . وأسمع كل واحد منهـم قومـه هذه العبـارة **«ومـا أسألكم عليـه من أجـر إن أجـري إلا على رب العالمين»**(٣) . . وجاء خاتمهم محمد ﷺ ليؤكد هذه المعاني فى دنيا الناس . . «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لاظهر له ، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لازاد له»(٤) .

«لاتحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق»(٥) .

«صنائع المعروف تقي مصارع السوء»(٦) .

« . . . . وتعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها أو ترفـع له عليهـا متـاعـه صدقـه ، والكلمـة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها الى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة»(٧) .

«بينـما رجـل يمشي بطـريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفـر له»(٨) . «بينـما رجـل يمشي بطـريق اشتـد عليـه العطش فوجـد بئرا فنزل فيها

---

(١) سورة الإنسان : ٨ ، ٩ .

(٢) سورة آل عمران : ٩٢ .

(٣) سورة الشعراء : ١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٨٠ .

(٤) مسلم : ٢٦٢٦ .

(٥) مسلم : ١٧٢٨ .

(٦) الحاكم عن أنس والطبرانى فى الأوسط عن أم سلمة انظر الجامع الكبير ج ١/٥٦٠ وكشف الخفا ج ٢٨/١ .

(٧) البخارى : ١١٦/٢ ، مسلم : ٢٠٢١/٤ برقم ١٩١٤ .

(٨) البخارى : ٢٢٦/٥ ، ٦٣/٦ ، مسلم : ١٠٠٩ ، ١٠٠٧ .

فشـرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكـل الثـرى من العطش ، فقـال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثـل الـذى كان قد بلغ مني ، فنـزل البئـر فملأ خفـه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له . . قالوا يارسول الله ان لنا فى البهائم أجرا . . فقال فى كل كبد رطبة أجر»[1] .

رابعا : مبدأ الغاية تبرر الوسيلة فى مذهب البراجماتية وموقف الإسلام :ـ

وهكذا يتعلم المسلم من دينه تقديم النفع للآخرين ابتغاء ماعند الله بعيدا عن سياسة تبادل المنافع . . فتسود المحبة والأخوة بين الناس . .

لم يتخـذ الإسـلام مثـل هذه الأخـلاق تدبيرا من تدابير السياسة أوحيلة يلجأ اليها الناس عند الحاجة ويتخلون عنها عند الطاقة والمقدرة .

كلا . . لقـد أمـر الإسلام أن يكون ذلك خلقا ملزما فى الوسائل والغايات فلا يجوز الـوصـول الى الغـاية الشريفة بالوسائل الخسيسة ، ولا مكان فى تعاليم الإسلام للمبدأ الخبيث الذى تقول به البراجماتية «الغاية تبرر الوسيلة» واليك هذا الدليل على ضرورة مشروعية الوسيلة وعدم تبريرها مهما كانت الظروف والأسباب .

يقول الله تعالى : **«والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق»**[2] .

كان المؤمنون فى عهد النبى ﷺ أربعة أصناف :ـ

١ ــ المهاجرون الأولون .

٢ ــ الأنصـــــار .

---

(١) البخارى : ٥/٣١،٣٢ ـ مسلم ٢٢٤٤ .

(٢) سورة الأنفال : ٧٢ .

٣ ــ الذين لم يهاجروا .
٤ ــ الذين هاجروا بعد صلح الحديبية .

والآية التى معنا خاصة بالصنف الثالث وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا ، فالآية توجب على المسلمين نصرتهم اذا ظلموا قياما بحق الاخوة الايمانية ، لكن اذا كانت هذه النصرة تؤدي الى الاخلال بعهد من العهود المبرمة بين المسلمين والكفار لم تجز النصرة لأن وسيلتها هو الخيانة ونقض العهد . . «**والله لا يحب الخائنين**» ودليل آخر . .

عندما كان الرسول ﷺ يعرض نفسه على القبائل قبل الهجرة قال له البعض أنؤمن لك ويكون لنا الأمر من بعدك . . ومع أنه كان يمكن نظرا لشرف الغاية ونبل المقصد أن يوفقهم الرسول ﷺ حتى يدخلوا فى الإسلام فتبدد كل هذه الأحلام . . الا أن الرسول الكريم رفض هذا المسلك وقال : «الأمر لله يضعه حيث يشاء ، حتى تكون جميع الأمور وسيلة وغاية واضحة . . وهذا هو القرآن الكريم يطلب من رسول الله ﷺ فى صراحة باقية «قل لاأقول لكم عندي خزائن الله ولاأعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك»[١] . فينفي كل أسباب الخداع فى الدعوة الى دينه فأين ظلام الجاهلية من نور الإسلام ؟ .

(١) سورة الأنعام : ٥٠

الفصل الثالث :

المذهب الوضعي أو الواقعي

*

ترجع نواة هذا المذهب إلى القرن الخامس قبل الميلاد على يد الفيلسوف الإغريقي بروتا جوراس ٤٨٠ ـ ٤١٠ ثم تطور بعمل الفيلسوف الفرنسي بايل فى النصف الثاني من القرن السابع عشر الذى رفض التعليل العقلي للحقائق الدينية أي رفض أن يقوم من العقل دليل على وجود تلك الحقائق وكان لذلك أثره فى دفع الحياة العلمية فى فرنسا إلى الواقعية وصار مفهوم العلم فى فرنسا آنذاك مقصوراً على التجربة الطبيعية والإنسانية أي التى يجربها الإنسان فى محيط الطبيعة فقط دون غيرها .

ثم عرف بهذا المذهب فى القرن الثامن عشر الفيلسوف الاسكتلندي «هيوم» الذى رأى أن مهمة العقل متوقفة على ماتأتي به الحواس والتجارب والربط بين المدركات الحسية فى العالم الخارجي .

إلا أن المذهب لم يأخذ مكانه فى تاريخ الفلسفة كمدرسة إلا على يد الفيلسوف الفرنسي «أوجست كونت» فى القرن التاسع عشر ومنذ ذلك التاريخ عرف بالمذهب الوضعي فأوجست كونت يعتبر المؤسس الأول للفلسفة الوضعية وهى الفلسفة التى لاتعتبر شيئا ماحقيقيا إلا ماجاء إثر التجارب الحسية واعتبر أوجست كونت أن العقل الإنساني مر بحالات مسماة بقانون الدورة الثلاثية أو قانون المراحل الثلاث وهى الدين والميتافيزيقيا والواقعية فاعتبر الدين فى القرون الوسطى مصدر للمعرفة ثم جعل للعقل اعتباره بدلا من الدين فى عصر التنوير فى القرن الثامن عشر ثم صارت المعرفة الحسية أو الوضعية وحدها هى المعتبرة دون العقل والدين معاً فى القرن التاسع عشر وكان يقصد بالدين المسيحية .

وجاء بعد كونت تلميذه «لودفيج فير باخ» أحد الفلاسفة الألمان فى القرن التاسع عشر الذى تعتبر فلسفته من الأسس القوية فى بناء الماركسية حيث يرى أن الفلسفة هى علم الواقع فى حقيقته وعمومه وجوهر الواقع هو الطبيعة الشاملة التى تدرك بطريق الحواس وعنده أن الحقيقة والواقع والحس كلها سواء وفى نظره من جانب آخر أن علم الانسان هو الدين، والدين محصول العقل الإنسانى وليس موحى به من خارج الانسان، والحياة الأخروية فى نظره ليست شيئا غير هذه الحياة الانسانية[1] .

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي : ٣٠٣ .

الوضعية نظرية فلسفية نشأت على أساس خاص وفى جو معين :

فالأساس الخاص الذى قامت عليه هو تقدير الطبيعة وتقييمها وحدها كمصدر للمعرفة والطبيعة أو الحقيقة أو الواقع أو الحس كلها تدل على معنى واحد فى نظر الوضعيين وتقدر هذه الفلسفة الطبيعية لاكمصدر مستقل فحسب للمعرفة بل كمصدر فريد للمعرفة اليقينية أو المعرفة الحقة ومعنى تقديرها للطبيعة على هذا النحو أن الطبيعة فى نظرها هى التى تنقش الحقيقة فى عقل الإنسان وهى التى توحي بها وترسم معالمها الواضحة هى التى تكون عقل الإنسان والانسان لهذا لايملي عليه من ذاته الخاصة إذ مايأتى من «ماوراء الطبيعة» خداع للحقيقة وليس حقيقة وكذا مايتصوره العقل من نفسه وهم وتخيل للحقيقة وليس حقيقة أيضا وبناء على ذلك يكون الدين وهو وحي أي مابعد الطبيعة خداع(1).

أما الجو الذي نشأت فيه الوضعية فهو سيطرة الرغبة على بعض الفلاسفة فى معارضة الكنيسة . . وبما أن الكنيسة تملك نوعا خاصاً من المعرفة تستغله فى خصوم المعارضين هو المعرفة الدينية فقد جاء ذلك لمعارضتها ومعارضة معرفتها وأخذ المذهب الوضعي ينكر دين الكنيسة ويضع دينا جديدا مكانه يسمى بالانسانية .

ديانـــة الإنسانيـــة :ـ

الإنسانية يجب أن تكون الهدف الذى يصل اليه الانسان ويضحي بفرديته من أجله ولذلك جاء أوجست كونت وجعل مهمة الفلسفة الواقعية أو الوضعية فى الغاء فكرة الحق الراجعة إلى سلطة أعلى من الإنسان واحلال فكرة الواجب محلها وحصر الاخلاق كلها فيه وجعل هذا الواجب عبارة عن الميل الطبيعي الى اخضاع النزعات الفردية إلى خدمة النوع الإنساني أجمع . . ويكون الشعار أو الهدف اذن «الحياة لأجل

---

(1) المرجع السابق : ٢٩٨ ط ثامنة .

الغير» والانسانية بهذا أرفع المعاني فى ميدان الاخلاق . . بل هى الدين الذي صاغة كونت وسماها الموجود الأعظم وأحلها محل الإله فى العبادة وجعل لها عبادة وطقوسا وكهنة فاما العبادة فتتمثل بصورتها الفردية فى صيانة الأشخاص للموجود الأعظم «الإنسانية» وتتمثل بصورتها المشتركة فى تكريم المحسنين إلى الإنسانية أي بتبجيل الرجال الذين أسهموا بنصيب وافر فى تقدم الإنسانية وذلك فى أعياد تخصص لهم .

وأما كهنتها فهم الفلاسفة ـ الشعراء ـ الأطباء .

والفلاسفة على قمة النوع الإنساني وهم بمثابة الدماغ من الجسم ويأتى بعدهم النساء : وهم بمثابة أعضاء العاطفة ولهن واجب وهو اثارة عواطف الحنان والغير ية الكفيلة باستكمال الموجود الأعظم وبعد النساء يأتى رجال المال والصناعة وهم بمثابة أعضاء التغذية وأخيرا يجىء العمال وهم أعضاء الحركة[1].

وقد شاعت ديانة الانسانية هذه فى الغرب وصار لها فى كل بلد كاهن أكبر وجعلوا لها معابد . . هذا وكان له أثره عند الأمريكان الذين تلقوا المذهب الانساني وجعلوه اتجاها دينيا فى نسق ديانة الانسانية لأوجست كونت . . وصيغ المذهب الانساني فى أمريكا فى بيان الانسانيين ونشر ١٩٣٣ وأمضاه كثير ون وتضمن البيان نقاطا كثيرة أهمها :ــ

١ ــ الكون موجود بذاته وليس مخلوقا .

٢ ــ الإنسان جزء من الطبيعة وهو نتيجة عمليات مستمرة فيها .

٣ ــ لاثنائية بين العقل والبدن وأن النظرة العضوية إلى الحياة نظرة صادقة .

٤ ــ ثقافة الإنسان الدينية ليست إلا نتاج التطور التدريجي الناشىء من التفاعل بين الإنسان والبيئة الطبيعية والوراثة الاجتماعية .

٥ ــ لقد ولى الزمن الذى كان يعتقد الناس فيه بالدين وبالله .

٦ ــ يتركب الدين من الأفعال والتجارب والأهداف التى لها دلالات فى نظر الإنسان ومن هنا زال التمييز بين المقدس والمادى .

٧ ــ ان التحقيق التام للشخصية الإنسانية هدف الإنسان .

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ـ يوسف كرم : ٣٢٧، ٣٢٨.

٨ ــ يعبر عن الانفعالات الدينية بالاحساسات الشخصية والجهود الجماعية التى تحقق الرفاهية الاجتماعية .

٩ ــ لاتوجد اذن انفعالات دينية ومواقف للناس تربطهم بوجود خارق للطبيعة وقد أمضى هذا البيان جون ديوى وآخرون[١] .

الانسانيــة مـذهب هـدام :ــ

تقتصر هنا فى نقد المذهب الوضعي على ابطال ديانة الانسانية لأننا ابطلنا المذهب المادي الطبيعي قبل ذلك ويتضح ابطال هذه الديانة من خلال الآتى :ــ

الإنسانية التى نادى بها كونت وأشاعها آخرون من بعده مذهب هدام يقوم على ألفاظ خادعة مثل الحرية والاخاء والمساواة بين الأفراد والشعوب ووحدة الأسرة البشرية ومجتمع الانسان متعاون ، وحق الجميع فى الحياة الكريمة . . الى آخر تلك الألفاظ الموهمة التى يغررون بها على البسطاء ، كما يظهر ذلك من مقالة أحد دعاتها «كالفرلى» التى جاء فيها «حينما يصبح الجميع أحرارا فى تفكيرهم لهم من الشجاعة مايجعلهم يتقبلون ماهوخير وعدل وجميل ، عندئذ يكون من المحتمل أن يسود العالم دين واحد ، وانى سأكون سعيدا باتباع دين عالمي موحد ، تنبع مصادره من حقائق التاريخ ، وتشمل مبادئه العدالة الاجتماعية وتقوم بفضله مظاهر الحب والاخاء على أنقاض الكراهية والخصومة»[٢] .

وهكذا يظهر لك خبث الدعوة إلى هذا المبدأ الذى تذوب فيه الأديان والأوطان ويصبح الجميع بلا دين أو رسالة ـ إلا دين الإنسانية الذى يعيش الناس فى ظله دون تمايز فى الأعراف أوفى الأجناس أوفى الأديان كما يزعمون فلا يكون حينئذ شىء اسمه اسلام ، أوجهاد أووحي أوعبادة . . وهذا ماتهدف اليه الماسونية العالمية التى تولت كبر الدعوة الى هذا المذهب الخبيث بكل شروره وأوزاره كما عبر عن ذلك أحد الماسون بقوله «ان ماتبغيه الماسونية ، هو وصول الانسانية شيئا فشيئا الى النظام الأمثل

(١) وليم جيمس ـ محمود زيدان : ٢٠٤ ، ٢٠٥ . والفكر المادي الحديث د . محمود عثمان : ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٢) الإسلام والحضارة الغربية د. محمد محمد حسين : ١٣٢ .

الـذى تتحقق فيـه الحـريـة بأكمـل معـانيها وتزول منه الفوارق بين الأفراد والشعوب ويسود فيه العلم والجهال والفضيلة[1] ونحن نلمح من وراء هذه الدعوة أمورا خطيرة .

١ ــ مسح الإسلام كدين خاتم نسخ الله بشريعته كل الشرائع السابقة، وأتم الله به الدين وأكمل النعمة **﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾**[2] .

٢ ــ تمييـع الحق أمـام الناس، حتى تشب الأجيال وهى لاتفرق بين الأديان، ولا تعرف الصحيح من المزيف، والمستقيم من المعوج .

٣ ــ خلط الكفر بالايهان حتى تتساوى الأمور والرؤ س، ولا يعرف حق من باطل .

أمـا عن الحـريـة والعـدل والمسـاواة التى يدعون، فإن الإنسانية لن تجد تطبيقا دقيقـا أمينـا لهذه المبـادىء الا فى ظل الإسـلام الذى يرعى المسلم وغير المسلم بنظمه وشرائعه، والشواهد على ذلك تملأ صفحات التاريخ الإسلامي .

(١) المرجع السابق : ١٩٦ .

(٢) سورة آل عمران : ٨٥ .

٨٦ـ التغريب

التعريف:

التغريب هو تيار فكري كبير ذو أبعاد سياسية واجتماعية وثقافية وفنية، يرمى إلى صبْغ حياة الأمم بعامة، والمسلمين بخاصة، بالأسلوب الغربي، وذلك بهدف إلغاء شخصيتهم المستقلة وخصائصهم المتفردة وجعلهم أسرى التبعية الكاملة للحضارة الغربية.

التأسيس وأبرز الشخصيات:

● بدأ المشرقيون في العالم الإسلامي مع نهاية القرن الثامن عشر ومطلع التاسع عشر بتحديث جيوشهم وتعزيزها عن طريق إرسال بعثات إلى البلاد الأوروبية أو باستقدام الخبراء الغربيين للتدريس والتخطيط للنهضة الحديثة، وذلك لمواجهة تطلع الغربيين إلى بسط نفوذهم الاستعماري إثر بدء عهد النهضة الأوروبية.

● لما قضى السلطان محمود الثاني على الإنكشارية العثمانية سنة ١٨٢٦م أمر باتخاذ الزيِّ الأوروبي الذي فرضه على العسكريين والمدنيين على حد سواء.

● أصدر السلطان العثماني عبد المجيد منشوراً ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م يسمح فيه لغير المسلمين بأن يلتحقوا بالخدمة العسكرية.

● استقدم السلطان سليم الثالث المهندسين من السويد وفرنسا والمجر وانجلترا وذلك لإنشاء المدارس الحربية والبحرية.

● قام محمد علي والي مصر، والذي تولى سنة ١٨٠٥م، ببناء جيش على النظام الأوروبي، كما عمد إلى ابتعاث خريجي الأزهر من أجل التخصص في أوروبا.

● أنشأ أحمد باشا باي الأول في تونس جيشاً نظامياً، وافتتح مدرسة للعلوم الحربية فيها ضباط وأساتذة فرنسيون وإيطاليون وإنجليز.

● افتتحت أسرة القاجار التي حكمت إيران كلية للعلوم والفنون على أساس غربي سنة ١٨٥٢م.

● منذ عام ١٨٦٠م بدأت حركة التغريب عملها في لبنان عن طريق الإرساليات، ومنها امتدت إلى مصر في ظل الخديوي إسماعيل الذي كان هدفه أن يجعل مصر قطعة من أوروبا.

● التقى الخديوي إسماعيل في باريس مع السلطان العثماني عبد العزيز ١٢٨٤هـ / ١٨٦٧م حينما لبَّيا دعوة الإمبراطور نابليون الثالث لحضور المعرض الفرنسي العام، وقد كانا يسيران في تيار الحضارة الغربية.

● ابتعث كل من رفاعة الطهطاوي إلى باريس وأقام فيها خمس سنوات ١٨٢٦ ـ ١٨٣١م وكذلك ابتعث خير الدين التونسي إليها وأقام فيها أربع سنوات ١٨٥٢ ـ ١٨٥٦م وقد عاد كل منهما محملاً بأفكار تدعو إلى تنظيم المجتمع على أساس علماني عقلاني.

● منذ ١٨٣٠م بدأ المبتعثون العائدون من أوروبا بترجمة كتب فولتير وروسو ومونتسكيو في محاولة منهم لنشر الفكر الأوروبي الذي ثار ضد الدين(*) الذي ظهر في القرن الثامن عشر (على النحو الذي فصلنا، في مادة العلمانية).

● أنشأ كرومر كلية فيكتوريا بالإسكندرية لتربية جيل من أبناء الحكام والزعماء والوجهاء في محيط إنجليزي ليكونوا أداة المستقبل في نقل ونشر الحضارة الغربية.

ـ قال اللورد لويد (المندوب السامي البريطاني في مصر) حينما افتتح هذه الكلية سنة ١٩٣٦م: «كل هؤلاء لن يمضي عليهم وقت طويل حتى يتشبعوا بوجهة النظر البريطانية بفضل العشرة الوثيقة بين المعلمين والتلاميذ».

● كان نصارى الشام من أول من اتصل بالبعثات التبشيرية وبالإرساليات ومن المسارعين بتلقي الثقافة الفرنسية والإنجليزية، كما كانوا يشجعون العلمانية التحررية وذلك لعدم إحساسهم بالولاء تجاه الدولة العثمانية، فبالغوا من اظهار إعجابهم بالغرب ودعوا إلى الاقتداء به وتتبع طريقه، وقد ظهر ذلك جلياً في الصحف التي أسسوها وعملوا فيها.

● كان ناصيف اليازجي ١٨٠٠ ـ ١٨٧١م وابنه إبراهيم اليازجي ١٨٤٧ ـ ١٩٠٦م على صلة وثيقة بالإرساليات الأمريكية الإنجيلية.

● أسس بطرس البستاني ١٨١٩ ـ ١٨٨٣م في عام ١٨٦٣م مدرسة لتدريس اللغة العربية والعلوم الحديثة فكان بذلك أول نصراني يدعو إلى العروبة والوطنية إذ كان شعاره «حب الوطن من الإيمان»، كما أصدر صحيفة **الجنان** سنة ١٨٧٠م التي استمرت ست عشرة سنة. وقد تولى منصب الترجمة في قنصلية أمريكا ببيروت مشاركا في الترجمة البروتستانتية للتوارة(*) مع الأمريكيين سميث وفانديك.

● أنشأ جورجي زيدان ١٨٦١ ـ ١٩١٤م مجلة **الهلال** في مصر وذلك في سنة ١٨٩٢م، وقد كان على صلة بالمبعوثين الأمريكان، كما كانت له سلسلة من القصص التاريخية التي حشاها بالافتراءات على الإسلام والمسلمين.

● أسس سليم تقلا صحيفة **الأهرام** في مصر وقد سبق له أن تلقى علومه في مدرسة عبية بلبنان والتي أنشأها المبشر الأمريكي فانديك.

● أصدر سليم النقاش صحيفة **المقتطف** التي عاشت ثمانية أعوام في لبنان انتقلت بعدها إلى مصر في سنة ١٨٨٤م.

● تجوَّل جمال الدين الأفغاني ١٨٣٨ـ١٨٩٧م كثيراً في العالم الإسلامي شرقاً وغرباً، وقد أدخل نظام الجمعيات السرية في العصر الحديث إلى مصر، كما يقال بأنه انضم إلى المحافل الماسونية، وكان على صلة بالمستر بلنت البريطاني.

● كان الشيخ محمد عبده ١٨٤٩ـ١٩٠٥م من أبرز تلاميذ الأفغاني، وشريكة في إنشاء مجلة **العروة الوثقى**، وكانت له صداقة مع اللورد كرومر والمستر بلنت، ولقد كانت مدرسته ـ ومنها رشيد رضا ـ تدعو إلى مهاجمة التقاليد، كما ظهرت لهم فتاوى تعتمد على أقصى ما تسمح به النصوص من تأويل(*) بغية إظهار الإسلام بمظهر المتقبل لحضارة الغرب، كما دعا الشيخ محمد عبده إلى ادخال العلوم العصرية إلى الأزهر لتطويره وتحديثه.

● كان المستشرق مستربلنت: يطوف هو وزوجته مرتدياً الزي العربي، داعياً إلى القومية العربية وإلى إنشاء خلافة عربية بغية تحطيم الرابطة الإسلامية.

● قاد قاسم أمين ١٨٦٥ ـ ١٩٠٨م وهو تلميذ محمد عبده، الدعوة إلى تحرير المرأة وتمكينها من العمل في الوظائف والأعمال العامة. وقد كتب **تحرير المرأة** ـ ١٨٩٩م **والمرأة الجديدة** ١٩٠٠م.

● كان سعد زغلول: الذي صار وزيراً للمعارف سنة ١٩٠٦م شديد التأثر بآراء محمد عبده، وقد نفذ فكرة كرومر القديمة والداعية إلى إنشاء مدرسة للقضاء الشرعي بقصد تطوير الفكر الإسلامي من خلال مؤسسة غير أزهرية منافسة له.

● كان أحمد لطفي السيد ١٨٧٢ ـ ١٩٦٣م: من أكبر مؤسسي حزب(*) الأحرار الدستوريين الذين انشقوا عن سعد زغلول سياسياً، وكان يدعو إلى الإقليمية الضيقة وهو صاحب العبارة المشهورة التي أطلقها عام ١٩٠٧م وهي «مصر للمصريين». وقد تولى شؤون الجامعة المصرية منذ تسلمتها الحكومة المصرية عام ١٩١٦م وحتى ١٩٤١م تقريباً.

● وكان طه حسين ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م من أبرز دعاة التغريب في العالم الإسلامي، حيث تلقى علومه على يد المستشرق دوركايم وقد نشر أخطر آرائه في كتابيه **الشعر الجاهلي ومستقبل الثقافة في مصر**.

ـ يقول في كتابه **الشعر الجاهلي** ص ٢٦: «للتوارة(*) أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل

وللقرآن أن يحدثنا أيضاً، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي».

ـ ويقول بعد ذلك: «وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول هذه الأسطورة في القرن السابع للمسيح(*)». كما أنه ينفي فيه نسب النبي(*) ﷺ إلى أشراف قريش.

ـ لقد بدأ طه حسين محاضرة له في اللغة والأدب بحمد الله والصلاة على نبيه ثم قال: «سيضحك مني بعض الحاضرين إذا سمعني أبدأ هذه المحاضرة بحمد الله والصلاة على نبيه لأن ذلك يخالف عادة العصر». (مجلة **الهلال**، عدد أكتوبر ونوفمبر ١٩١١م).

● ازدهرت حركة التغريب بعد سيطرة الاتحاديين عام ١٩٠٨م على الحكم في الدولة العثمانية وسقوط السلطان عبد الحميد.

● وفي سنة ١٩٢٤م ألغت حكومة مصطفى كمال أتاتورك الخلافة(*) العثمانية مما مهد لانضمام تركيا إلى الركب العلماني الحديث، وفرض عليها التغريب بأقصى صوره وأعنفها.

● علي عبد الرزاق: نشر سنة ١٩٢٥م كتابه **الإسلام وأصول الحكم** الذي ترجم إلى الإنجليزي والأردية. يحاول فيه المؤلف أن يقنع القارىء بأن الاسلام دين(*) فقط وليس ديناً ودولة. وقد ضرب سميث مثلاً به عندما أشار إلى أن التحررية العلمانية والعالمية لا تروج في العالم الاسلامي إلا إذا فسرت تفسيراً إسلامياً مقبولاً، وقد حوكم الكتاب والمؤلف من قبل هيئة العلماء بالأزهر في ١٢/٨/ ١٩٢٥م وصدرت ضده إدانة أخرجته من زمرة العلماء. وكان يشرف على مجلة **الرابطة الشرقية**، كما أقام حفل تكريم لأرنست رينان في الجامعة المصرية بمناسبة مرور مائة سنة على وفاة هذا المستشرق الذي لم يدخر وسعاً في مهاجمة العرب والمسلمين.

● وكان محمود عزمي من أكبر دعاة الفرعونية في مصر، درس على أستاذه دور كايم الذي كان يقول له: «إذا ذكرت الاقتصاد فلا تذكر الشريعة(*)، وإذا ذكرت الشريعة فلا تذكر الاقتصاد».

● وسبق أن قدم منصور فهمي ١٨٨٦ ـ ١٩٥٩م: أول أطروحة للدكتوراه على أستاذه ليفي بريل مهاجماً نظام الزواج في الإسلام التي موضوعها **حالة المرأة في التقاليد الإسلامية وتطوراتها**. وفي هذه الرسالة يقول: «محمد يشرع لجميع الناس ويستثني نفسه» ويقول: «إلا أنه أعفى نفسه من المهر والشهود»، لكنه انتقد بعد ذلك حركة(*) التغريب في سنة ١٩١٥م وجاهر بآرائه في الأخطاء التي حملها طه حسين ومدرسته.

● ويعتبر إسماعيل مظهر من أئمة مدرسة التغريب لكنه لم يلبث أن تحول عنها إبان

عصر النهضة الحديثة.

● وكان زكي مبارك في مقدمة تلاميذ طه حسين. درس على أيدي المستشرقين، وسبق له أن قدم أطروحة للدكتوراه في **الغزالي والمأمون** مهاجماً الغزالي هجوماً عنيفاً، لكنه رجع عن ذلك فيما بعد وكتب مقاله المعروف **إليك أعتذر أيها الغزالي**.

● ويعتبر محمد حسين هيكل ١٨٨٨ ـ ١٩٥٦م رئيس تحرير جريدة **السياسة** في الفترة الأولى من حياته من أبرز المستغربين، وقد أنكر الإسراء بالروح والجسد معاً انطلاقاً من نظرة عقلانية **حياة محمد**. لكنه عدل عن ذلك وكتب معبراً عن توجهه الجديد في مقدمة كتابه **في منزل الوحي**.

● وكان الشيخ أمين الخولي وهو من مدرسي مادتي التفسير والبلاغة بالجامعة المصرية، يروج لأفكار طه حسين في الدعوة إلى دراسة القرآن دراسة فنية بغض النظر عن مكانته الدينية، وقد استمر في ذلك حتى كشفه الشيخ محمود شلتوت سنة ١٩٤٧م.

● وقاد شبلي شميل ١٨٦٠ ـ ١٩١٧م الدعوة إلى العلمانية ومهاجمة قيم الأديان(*) والأخلاق(*).

الأفكار والمعتقدات:

● **أفكار تغريبية:**

ـ المستشرق الإنجليزي جب ألف كتاب **إلى أين يتجه الإسلام** الذي يقول فيه: «من أهم مظاهر سياسة التغريب في العالم الإسلامي تنمية الاهتمام ببعث الحضارات القديمة». وقد أعلن في بحثه هذا صراحة أن هدف إلى معرفة «إلى أي مدى وصلت حركة تغريب الشرق وما هي العوامل التي تحول دون تحقيق هذا التغريب».

ـ عندما دخل اللورد اللنبي القدس عام ١٩١٨م أعلن قائلاً: «الآن انتهت الحروب الصليبية».

ـ يقول لورنس براون: «إن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قدرته على التوسع والإخضاع وفي حيويته. إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار(*) الغربي». ولهذا فلابد من الدعوة إلى أن يطبع العالم الإسلامي بطابع الغرب الحضاري.

ـ تشجيع فكرة إيجاد فكر إسلامي متطور يبرر الأنماط الغربية ومحو الطابع المميز للشخصية الإسلامية بغية إيجاد علائق مستقرة بين الغرب وبين العالم الإسلامي خدمة لمصالحه.

ـ الدعوة إلى الوطنية ودراسة التاريخ القديم والدعوة إلى الحرية(*) باعتبارها أساس

نهضة الأمة مع عرض النظم الاقتصادية الغربية عرضاً مصحوباً بالإعجاب، وتكرار الكلام حول تعدد الزوجات في الإسلام وتحديد الطلاق واختلاط الجنسين.

ـ نشر فكرة العالمية والإنسانية التي يزعم أصحابها بأن ذلك هو السبيل إلى جمع الناس على مذهب(*) واحد تزول معه الخلافات الدينية والعنصرية لإحلال السلام في العالم، ولتصبح الأرض وطناً واحداً يدين بدين(*) واحد ويتكلم بلغة واحدة وثقافة مشتركة، بغية تذويب الفكر الإسلامي واحتوائه في بوتقة الأقوياء المسيطرين أصحاب النفوذ العالمي.

ـ إن نشر الفكر القومي كان خطوة على طريق التغريب في القرن التاسع عشر وقد انتقل من أوروبا إلى العرب والإيرانيين والترك والأندونيسيين والهنود، بغية تمزيق الكتل الكبيرة إلى كيانات جزئية تقوم على رابط جغرافي يجمع أناساً ينتمون إلى أصول عرقية مشتركة.

ـ تنمية الاهتمام ببعث الحضارات القديمة، يقول المستشرق جب: «وقد كان من أهم مظاهر سياسية التغريب في العالم الإسلامي تنمية الاهتمام ببعث الحضارات القديمة التي ازدهرت في البلاد المختلفة التي يشغلها المسلمون الآن... وقد تكون أهميته محصورة الآن في تقوية شعور العداء لأوروبا ولكن من الممكن أن يلعب في المستقبل دوراً مهماً في تقوية القوميات المحلية وتدعيم مقوماتها».

ـ عرض روكفلر الصهيوني المتعصب تبرعه بعشرة ملايين دولار لإنشاء متحف للآثار الفرعونية في مصر وملحق به معهد لتخريج المتخصصين في هذا الفن.

ـ إن كلاً من الاستعمار،(*) والاستشراق، والشيوعية، والماسونية وفروعها، والصهيونية، ودعاة التوفيق بين الأديان «وحدة الأديان(*)»، قد تآزروا جميعاً في دعم حركة(*) التغريب وتأييدها بهدف تطويق العالم الإسلامي وتطويعه ليكون أداة لينة بأيديهم.

ـ نشر المذاهب الهدامة كالفرويدية، والداروينية، والماركسية، والقول بتطور الأخلاق(*) (ليفي بريل) وبتطور المجتمع (دوركايم) والتركيز على الفكر الوجودي والعلماني، والتحرري، والدراسات عن التصوف الإسلامي، والدعوة إلى القومية والإقليمية والوطنية، والفصل بين الدين والمجتمع، وحملة الانتقاص من الدين، ومهاجمة القرآن والنبوة(*) والوحي(*) والتاريخ الإسلامي، والتشكيك في القيم الإسلامية، والدعوة إلى التخلي عن الأصالة والتميز، والتخويف من الموت أو الفقر وذلك لإقعاد المسلمين عن فكرة الجهاد،(*) وإشاعة فكرة أن سبب تأخر العرب والمسلمين إنما هو الإسلام.

ـ اعتبار القرآن فيضاً من العقل الباطن مع الإشادة بعبقرية النبي(*) محمد ﷺ وألمعيته وصفاء ذهنه ووصف ذلك بالإشراق(*) الروحي تمهيداً لإزالة صفة النبوة عنه.

● **مؤتمرات تغريبية:**

ـ عقد مؤتمر في بلتيمور عام ١٩٤٢م وهو يدعو إلى دراسة وابتعاث الحركات السرية في الإسلام.

ـ في عام ١٩٤٧م عقد في جامعة برنستون بأمريكا مؤتمر لدراسة (الشؤون الثقافية والاجتماعية في الشرق الأدنى) وقد ترجمت بحوث هذا المؤتمر إلى العربية تحت رقم ١١٦ من مشروع الألف كتاب في مصر. شارك فيه كويلر يونغ وحبيب كوراني وعبد الحق اديوار ولويس توماس.

ـ عقد مؤتمر (الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة) في صيف عام ١٩٥٣م في جامعة برنستون وشارك فيه كبار المفكرين من مثل ميل بروز، وهارولد سميث، وروفائيل باتاي، وهارولد ألن، وجون كرسويل، والشيخ مصطفى الزرقا، وكنت كراج، واشتياق حسين، وفضل الرحمن الهندي.

ـ وفي عام ١٩٥٥م عقد في لاهور بالباكستان مؤتمر ثالث لكنه فشل وظهرت خطتهم بمحاولتهم إشراك باحثين من المسلمين والمستشرقين في توجيه الدراسات الإسلامية.

ـ انعقد مؤتمر للتأليف بين الإسلام والمسيحية(*) في بيروت ١٩٥٣م، ثم في الاسكندرية ١٩٥٤م وتتالت بعد ذلك اللقاءات والمؤتمرات في روما وغيرها من البلدان لنفس الغرض.

ـ في سبتمبر ١٩٩٤ عقد بالقاهرة مؤتمر السكان والتنمية بهدف نشر أفكار التحلل الجنسي «الغربية» بين المسلمين ـ من إتاحة للاتصالات غير المشروعة بين المراهقين والإجهاض والزواج الحر والسفاح والتدريب على موانع الحمل، وقد أصدرت هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية فتوى بضرورة مقاطعته والحذر من توصياته وإهدافه.

● **كتب تغريبية خطرة:**

ـ **الإسلام في العصر الحديث** لمؤلفه ولفرد كانتول سميث مدير معهد الدراسات الإسلامية وأستاذ الدين المقارن في جامعة ماكجيل بكندا، حصل على الدكتوراه من جامعة برنستون سنة ١٩٤٨م تحت إشراف المستشرق هـ. أ. ر. جب الذي تتلمذ عليه في جامعة كمبريدج وهذا الكتاب يدعو إلى التحررية Liberalism والعلمانية Secularism وإلى فصل الدين(*) عن الدولة.

ـ نشر هـ. أ. ر. جب كتابه **إلى أين يتجه الإسلام؟** Whither Islam? الذي نشر بلبنان سنة ١٩٣٢م كان قد ألفه مع جماعة من المستشرقين، وهو يبحث في أسباب

تعثر عملية التغريب في العالم الإسلامي ووسائل تقدمها وتطورها.

- إن **بروتوكولات حكماء صهيون**(*) التي ظهرت في العالم كله عام ١٩٠٢م ظلت ممنوعة من الدخول إلى الشرق الأوسط والعالم الإسلامي حتى عام ١٩٥٢م تقريباً أي إلى ما بعد قيام إسرائيل في قلب الأمة العربية والإسلامية. ولا شك بأن منعها كان خدمة لحركة التغريب عموماً.

- تصوير بعض الشخصيات الإسلامية في صور من الابتذال والعهر والمزاجية كما في كتب جورجي زيدان، وكذلك تلك الكتب التي تضيف الأساطير القديمة إلى التاريخ الإسلامي **على هامش السيرة** لطه حسين والكتب التي تعتمد على المصادر غير الموثوقة مثل **محمد رسول الحرية** للشرقاوي وكتبه عن الخلفاء الراشدين والأئمة التسعة.

الجذور الفكرية والعقائدية:

● لقد ارتدت الحملة الصليبية مهزومة بعد حطين، وفتح العثمانيون عاصمة الدولة البيزنطية ومقر كنيستهم(*) عام ١٤٥٣م واتخذوها عاصمة لهم وغيروا اسمها إلى اسلامبول أي دار الإسلام، كما أن جيوش العثمانيين قد وصلت أوروبا وهددت فيينا سنة ١٥٢٩م وقد ظل هذا التهديد قائماً حتى سنة ١٦٨٣م. وسبق ذلك كله سقوط الأندلس وجعلها مقراً للخلافة(*) الأموية، كل ذلك كان مدعاة للتفكير بالتغريب، والتبشير فرع منه، ليكون السلاح الذي يحطم العالم الإسلامي من داخله.

● إن التغريب هجمة نصرانية، صهيونية، استعمارية،(*) في آن واحد، التقت على هدف مشترك بينها وهو طبع العالم الإسلامي بالطابع الغربي تمهيداً لمحو الطابع المميز للشخصية الإسلامية.

الانتشار ومواقع النفوذ:

● لقد استطاعت حركة(*) التغريب أن تتغلغل في كل بلاد العالم الإسلامي، وإلى كل البلاد المشرقية على أمل بسط بصمات الحضارة الغربية المادية(*) الحديثة على هذه البلاد وربطها بالغرب فكراً وسلوكاً.

● لقد تفاوت تأثير حركة التغريب إذ أنه قد ظهر بوضوح في مصر، وبلاد الشام، وتركيا، وأندونيسيا والمغرب العربي، وتتدرج بعد ذلك في البلاد الإسلامية الأقل فالأقل، ولم يخل بلد إسلامي أو مشرقي من آثار وبصمات هذه الحركة.

ويتضح مما سبق:

أن التغريب تيار مشبوه يهدف إلى نقض عرى الإسلام والتحلل من التزاماته وقيمه واستقلاليته، والدعوة إلى التبعية للغرب في كل توجهاته وممارساته. ومن واجب قادة الفكر الإسلامي كشف مخططاته والوقوف بصلابة أمام سمومه ومفترياته، التي تبثها الآن، شخصيات مسلمة، وصحافة ذات باع طويل في محاولات التغريب، وأجهزة وثيقة الصلة بالصهيونية العالمية والماسونية الدولية. وقد استطاع هذا التيار استقطاب كثير من المفكرين العرب، فمسخوا هويتهم، وحاولوا قطع صلتهم بدينهم، والذهاب بولائهم وانتمائهم لأمتهم الإسلامية، من خلال موالاة الغرب والزهو بكل ما هو غربي، وهي أمور ذات خطر عظيم على الشباب المسلم.

مراجع للتوسع:

- **حصوننا مهددة من داخلها**، د. محمد محمد حسين ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط ٧ ـ ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- **العالم الإسلامي والمكائد الدولية خلال القرن الرابع عشر الهجري**، فتحي يكن ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- **الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر**، د. محمد محمد حسين ـ دار الإرشاد ـ بيروت ـ طبعة عام ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م.
- **الإسلام والحضارة الغربية**، د. محمد محمد حسين ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ٥٤ ـ ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- **شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي**، أنور الجندي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ طبعة عام ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
- **يقظة الفكر العربي**، أنور الجندي ـ مطبعة زهران ـ القاهرة ـ ١٩٧٢م.
- **تحرير المرأة**، قاسم أمين ـ ط ٢ ـ مطبعة روزاليوسف ـ ١٩٤١م.
- **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، أحمد أمين ـ ط ١ ـ نشر مكتبة النهضة المصرية ـ ١٩٤٨م.
- **تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر**، الدكتورة نفوسة زكريا ـ دار الثقافة بالإسكندرية ـ ١٣٩٣هـ / ١٩٦٤م.
- **حاضر العالم الإسلامي**، لوثروب ستودارد ـ ترجمة عجاج نويهض وتعليق شكيب

أرسلان ـ مصر ١٣٤٣هـ / ١٩٢٥م.

ـ **الغارة على العالم الإسلامي**، أ. ل. شاتليه ـ ترجمة مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب ـ مصر ١٣٥٠هـ .

ـ **مستقبل الثقافة في مصر**، طه حسين ـ مصر ـ ١٩٤٤م.

ـ **اليوم والغد**، سلامة موسى ـ مصر ـ ١٩٢٧م.

ـ **إلى أين يتجه الإسلام**، هـ. أ. ر. جب ـ ط لبنان ـ ١٩٣٢م.

المراجع الأجنبية:

- Islam in Modern History W.C.Smith, Princeton University Press New Jersy 1957
- Whither Islam?: H.A.R. Gibb. London 1932.
- Arabic Thought in the Liberal Age: A. Hourani, Oxford 1962.
- Egypt Since Cromer: Lord Loyd, London 1933.
- Modern Egypt The Earl of Cromer: London 1911.
- Great Britain Egypt (F.W. Polson Newmen 1928)
- Reports by His Majesty's Agent and Consul General on the Finances.
- Administration and Condition of Egypt and the Sudan.

١١٣- الحداثة

التعريف:

● الحداثة مذهب(*) فكري أدبي علماني، بني على أفكار وعقائد غربية خالصة مثل الماركسية والوجودية والفرويدية والداروينية، وأفاد من المذاهب الفلسفية والأدبية التي سبقته مثل السريالية والرمزية. . . وغيرها.

● وتهدف الحداثة إلى إلغاء مصادر الدين(*)، وما صدر عنها من عقيدة وشريعة وتحطيم كل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية بحجة أنها قديمة وموروثة لتبني الحياة على الإباحية والفوضى والغموض، وعدم المنطق، والغرائز الحيوانية، وذلك باسم الحرية(*)، والنفاذ إلى أعماق الحياة. والحداثة خلاصة مذاهب خطيرة ملحدة، ظهرت في أوروبا كالمستقبلية والوجودية والسريالية وهي من هذه الناحية شر لأنها إملاءات اللاوعي في غيبة الوعي والعقل(*) وهي صبيانية المضمون وعبثية في شكلها الفني وتمثل نزعة الشر والفساد في عداء مستمر للماضي والقديم، وهي إفراز طبيعي لعزل الدين عن الدولة في المجتمع الأوروبي ولظهور الشك(*) والقلق في حياة الناس مما جعل للمخدرات والجنس تأثيرهما الكبير.

التأسيس وأبرز الشخصيات:

● بدأ مذهب الحداثة منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي تقريباً في باريس على يد كثير من الأدباء السرياليين والرمزيين والماركسيين والفوضويين والعبثيين، ولقي استجابة لدى الأدباء الماديين والعلمانيين والملحدين في الشرق والغرب. حتى وصل إلى شرقنا الإسلامي والعربي.

● **ومن أبرز رموز مذهب(*) الحداثة من الغربيين:**

- شارل بودلير ١٨٢١ - ١٨٦٧م وهو أديب فرنسي أيضاً نادى بالفوضى الجنسية والفكرية والأخلاقية، ووصفها بالسادية أي مذهب التلذذ بتعذيب الآخرين. له ديوان شعر باسم **أزهار الشر** مترجم للعربية من قبل الشاعر إبراهيم ناجي، ويعد شارل بودلير مؤسس الحداثة في العالم الغربي.

- الأديب الفرنسي غوستاف فلوبير ١٨٢١ - ١٨٨٠م.

ـ مالا راميه ١٨٤٢ ـ ١٨٩٨م وهو شاعر فرنسي ويعد أيضاً من رموز المذهب الرمزي.

ـ الأديب الروسي مايكوفسكي، الذي نادى بنبذ الماضي والاندفاع نحو المستقبل.

● **ومن رموز مذهب(*) الحداثة في البلاد العربية:**

ـ يوسف الخال ـ الشاعر النصراني وهو سوري الأصل رئيس تحرير **مجلة شعر** الحداثية. وقد مات منتحراً أثناء الحرب الأهلية اللبنانية.

ـ أدونيس (علي أحمد سعيد) نصيري سوري، ويعد المُروِّج الأول لمذهب الحداثة في البلاد العربية، وقد هاجم التاريخ الإسلامي، والدين(*) والأخلاق(*) في رسالته الجامعية التي قدمها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة «القديس يوسف» في لبنان وهي بعنوان **الثابت والمتحول**، ودعا بصراحة إلى محاربة الله عز وجل. وسبب شهرته فساد الإعلام بتسليط الأضواء على كل غريب.

ـ د. عبد العزيز المقالح ـ وهو كاتب وشاعر يماني، وهو الآن مدير لجامعة صنعاء وذو فكر يساري.

ـ عبد الله العروي ـ ماركسي مغربي.

ـ محمد عابد الجابري مغربي.

ـ الشاعر العراقي الماركسي عبد الوهاب البياتي.

ـ الشاعر الفلسطيني محمود درويش ـ عضو الحزب الشيوعي الإسرائيلي أثناء إقامته بفلسطين المحتلة، وهو الآن يعيش خارج فلسطين.

ـ كاتب ياسين ماركسي جزائري.

ـ محمد أركون جزائري يعيش في فرنسا.

ـ الشاعر المصري صلاح عبد الصبور ـ مؤلف مسرحية **الحلاج**.

الأفكار والمعتقدات:

● نجمل أفكار ومعتقدات مذهب الحداثة كما هي عند روادها ورموزها وذلك من خلال كتاباتهم وشعرهم فيما يلي:

ـ رفضُ مصادر الدين(*)، الكتاب والسنة والإجماع(*)، وما صدر عنها من عقيدة إما صراحة أو ضمناً.

ـ رفض الشريعة(*) وأحكامها كموجه للحياة البشرية.

ـ الدعوة إلى نقد النصوص الشرعية، والمناداة بتأويل جديد لها يتناسب والأفكار الحداثية.

ـ الدعوة إلى إنشاء فلسفات حديثة على أنقاض الدين.

ـ الثورة(*) على الأنظمة السياسية الحاكمة لأنها في منظورها رجعية متخلفة أي غير حداثية، وربما استثنوا الحكم البعثي.

ـ تبني أفكار ماركس المادية(*) الملحدة، ونظريات فرويد في النفس الإنسانية وأوهامه، ونظريات دارون في أصل الأنواع وأفكار نيتشه، وهلوسته، والتي سموها فلسفة، في الإنسان الأعلى (السوبرمان).

ـ تحطيم الأطر التقليدية والشخصية الفردية، وتبني رغبات الإنسان الفوضوية والغريزية.

ـ الثورة على جميع القيم الدينية والاجتماعية والأخلاقية والإنسانية، وحتى الاقتصادية والسياسية.

ـ رفض كل ما يمت إلى المنطق والعقل.

ـ اللغة ـ في رأيهم ـ قوة ضخمة من قوى الفكر المتخلف التراكمي السلطوي، لذا يجب أن تموت، ولغة الحداثة هي اللغة النقيض لهذه اللغة الموروثة بعد أن أضحت اللغة والكلمات بضاعة عهد قديم يجب التخلص منها.

ـ الغموض والإبهام والرمز ـ معالم بارزة في الأدب والشعر الحداثي.

ـ ولا يقف الهجوم على اللغة وحدها ولكنه يمتد إلى الأرحام والوشائح حتى تتحلل الأسرة، وتزول روابطها، وتنتهي سلطة الأدب وتنتصر إرادة الإنسان وجهده على الطبيعة والكون.

● ومن الغريب أن كل حركة جديدة للحداثة تعارض سابقتها في بعض نواحي شذوذها وتتابع في الوقت نفسه مسيرتها في الخصائص الرئيسية للحداثة.

● إن الحداثة هي خلاصة سموم الفكر البشري كله، من الفكر الماركسي إلى العلمانية الرافضة للدين(*)، إلى الشعوبية(*)، إلى هدم عمود الشعر، إلى شجب تاريخ أهل السنة كاملاً، إلى إحياء الوثنيات(*) والأساطير.

● ويتخفى الحداثيون وراء مظاهر تقتصر على الشعر والتفعيلة والتحليل، بينما هي تقصد رأساً هدم اللغة العربية وما يتصل بها من مستوى بلاغي وبياني عربي مستمد من القرآن الكريم، وهذا هو السر في الحملة على القديم وعلى التراث وعلى السلفية(*).

تطور مذهب الحداثة في الغرب وفي البلاد العربية:

● إن حركة الحداثة الأوروبية بدأت قبل قرن من الزمن في باريس بظهور الحركة

البوهيمية فيها بين الفنانين في الأحياء الفقيرة.

ـ ونتيجة للمؤثرات الفكرية، والصراع السياسي والمذهبي والاجتماعي شهدت نهاية القرن التاسع عشر الميلادي في أوروبا اضمحلال العلاقات بين الطبقات، ووجود فوضى حضارية انعكست آثارها على النصوص الأدبية. وبلغت التفاعلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في أوروبا ذروتها في أعقاب الحرب العالمية الأولى. وبقيت باريس مركز تيار الحداثة الذي يمثل الفوضى الأدبية.

ـ وقد تبنت الحداثة كثيراً من المعتقدات والمذاهب الفلسفية والأدبية والنفسية أهمها:

١ ـ **الدادائية**: وهي دعوة ظهرت عام ١٩١٦ م، غالت في الشعور الفردي ومهاجمة المعتقدات، وطالبت بالعودة للبدائية والفوضى الفنية الاجتماعية.

٢ ـ **السريالية**: واعتمادها على التنويم المغناطيسي(*)، والأحلام الفرويدية، بحجة أن هذا هو الوعي الثوري للذات، ولهذا ترفض التحليل المنطقي، وتعتمد بدلاً عنه الهوس والعاطفة.

٣ ـ **الرمزية**: وما تتضمنه من ابتعاد عن الواقع والسباحة في عالم الخيال والأوهام، فضلاً عن التحرر من الأوزان الشعرية، واستخدام التعبيرات الغامضة والألفاظ الموحية برأي روادها.

ـ وقد واجهت الحداثة معارضة شديدة في كل أنحاء أوروبا، حتى في باريس مسقط رأسها، من المدافعين عن اللغة والتراث وممن ينيطون بالأدب مهمة التوصيل في إطار العقل والوعي الإنساني.

ـ وكثير من أدباء القرن العشرين لم يعترفوا بالحداثة ولا بما جاءت به من تجريد جمالي وثورة وعدم تواصل، وعدَّ كثير من المفكرين الغربيين الحداثة نزوة عابرة في تاريخ الفكر الغربي.

● والحداثة العربية هي حداثة غربية في كل جوانبها وأصولها وفروعها إلا أنها تسللت إلى العالم العربي دون غرابة، وذلك لأنها اتخذت صورة العصرية، والاتجاه التجديدي(*) في الأدب، وارتباط مفهوم الحداثة في أذهان بعض المثقفين بحركة ما يسمي بالشعر الحر أو شعر التفعيلة.

ـ اصطلاح الحداثة بمفهومه الغربي، لم يقتحم الأدبي العربي إلا في فترة السبعينات بينما تسربت مضامينه منذ الثلاثينات من هذا القرن، وذلك في محاولات الخروج على علم العروض العربي، وفي الأربعينات ظهرت بعض ظواهر التمرد والثورة والرفض وتجريب

بعض الاتجاهات الأدبية الغربية كالتعبيرية والرمزية والسريالية.

ثم ظهرت **مجلة شعر** التي رأس تحريرها في لبنان يوسف الخال عام ١٩٥٧م وتوقفت عام ١٩٦٤م للتمهيد لظهور حركة(*) الحداثة بصفتها حركة فكرية، لخدمة التغريب، وصرف العرب عن عقيدتهم ولغتهم الفصحى.. لغة القرآن الكريم.

وبدأت تجربتها خلف ستار تحديث الأدب، فاستخدمت مصطلح الحداثة عن طريق ترجمة شعر رواد الحداثة الغربيين أمثال: بودلير ورامبو ومالاراميه، وبدأ رئيس تحريرها ـ أي: **مجلة شعر** ـ بكشف ما تروج له الحداثة الغربية حين دعا إلى تطوير الإيقاع الشعري، وقال بأنه ليس للأوزان التقليدية أي قداسة ويجب أن يعتمد في القصيدة على وحدة التجربة والجو العاطفي العام لا على التتابع العقلي والتسلسل المنطقي كما أنه قرر في مجلته أن الحداثة موقف حديث في الله والإنسان والوجود.

● كان لعلي أحمد سعيد (أدونيس) دور مرسوم في حركة الحداثة وتمكينها على أساس ما دعاه من الثبات والتحول فقال: «لا يمكن أن تنهض الحياة العربية ويبدع الإنسان العربي إذا لم تتهدم البنية التقليدية السائدة في الفكر العربي والتخلص من المبنى الديني التقليدي الاتباعي». استخدم أدونيس مصطلح الحداثة الصريح ابتداءً من نهاية السبعينات عندما أصدر كتابه: **صدمة الحداثة** عام ١٩٧٨م وفيه لا يعترف بالتحول إلا من خلال الحركات الثورية السياسية والمذهبية، وكل ما من شأنه أن يكون تمرداً على الدين(*) والنظام تجاوزاً للشريعة(*).

ـ لقد أسقط أدونيس مفهوم الحداثة على الشعر الجاهلي وشعراء الصعاليك وشعر عمرو بن أبي ربيعة، وأبي نواس وبشار بن برد وديك الجن الحمصي، كما أسقط مصطلح الحداثة على المواقف الإلحادية لدى ابن الراوندي وعلى الحركات الشعوبية(*) والباطنية(*) والإلحادية المعادية للإسلام أمثال: ثورة الزنج والقرامطة.

ـ ويعترف أدونيس بنقل الحداثة الغربية حين يقول في كتابه **الثابت والمتحول**: «لا نقدر أن نفصل بين الحداثة العربية والحداثة في العالم».

● **أهم خصائص الحداثة:**

ـ محاربة الدين(*) بالفكر وبالنشاط.

ـ الحيرة والشك(*) والقلق والاضطراب.

ـ تمجيد الرذيلة والفساد والإلحاد.

ـ الهروب من الواقع إلى الشهوات والمخدرات والخمور.

- الثورة على القديم كله وتحطيم جميع أطر الماضي، إلا الحركات الشعوبية والباطنية(*).

- الثورة على اللغة بصورها التقليدية المتعددة.

- امتدت الحداثة في الأدب إلى مختلف نواحي الفكر الإنساني ونشاطه.

- قلب موازين المجتمع والمطالبة بدفع المرأة إلى ميادين الحياة بكل فتنتها، والدعوة إلى تحريرها من أحكام الشريعة(*).

- عزل الدين ورجاله واستغلاله في حروب عدوانية.

- تبني المصادفة والحظ والهوس والخيال لمعالجة الحالات النفسية والفكرية بعد فشل العقل في مجابهة الواقع.

- امتداد الثورة على الطبيعة(*) والكون ونظامه وإظهار الإنسان بمظهر الذي يقهر الطبيعة.

- ولذا نلمس في الحداثة قدحاً في التراث الإسلامي، وإبرازاً لشخصيات عرفت بجنوحها العقدي كالحلاج والأسود العنسي ومهيار الديلمي وميمون القداح وغيرهم. وهذا المنهج يعبر به الأدباء المتحللون من قيم الدين والأمانة، عن خلجات نفوسهم وانتماءاتهم الفكرية.

ويتضح ما سبق: أن الحداثة تصور إلحادي جديد - تماماً - للكون والإنسان والحياة، وليست تجديداً(*) في فنيات الشعر والنثر وشكلياتها. وأقوال سدنة الحداثة تكشف عن انحرافهم باعتبار أن مذهبهم يشكل حركة مضللة ساقطة لا يمكن أن تنمو إلا لتصبح هشيماً تذروه الرياح وصدق الله العظيم إذ يقول: **﴿ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً﴾**.

حسبنا في التدليل على سعيهم لهدم الثوابت أن نسوق قول أدونيس وهو أحد رموز الحداثة في العالم العربي في كتابه **فن الشعر ص ٧٦**: «إن فن القصيدة أو المسرحية أو القصة التي يحتاج إليها الجمهور العربي ليست تلك التي تسليه أو تقدم له مادة استهلاكية، وليست تلك التي تسايره في حياته الجادة، وإنما هي التي تعارض هذه الحياة! أي تصدمه، وتخرجه من سُباته، تفرغه من موروثه وتقذفه خارج نفسه، إنها التي تجابه السياسة ومؤسساتها، الدين ومؤسساته، العائلة ومؤسساتها، التراث ومؤسساته، وبنية المجتمع القائم. كلها بجميع مظاهرها ومؤسساتها، وذلك من أجل تهديمها كلها! أي من أجل خلق الإنسان العربي الجديد، يلزمنا تحطيم الموروث الثابت، فهنا يكمن العدو الأول للثورة والإنسان».

ولا يعني التمرد على ما هو سابق وشائع في مجتمعنا إلا التمرد على الإسلام وإباحة كل

شيء باسم الحرية(*).

ـ فالحداثة إذن هي منهج(*) فكري عقدي يسعى لتغيير الحياة ورفض الواقع والردة عن الإسلام بمفهومه الشمولي والانسياق وراء الأهواء والنزعات الغامضة والتغريب المضلل.

وليس الإنسان المسلم في هذه الحياة في صراع وتحد مع الكون كما تقول كتابات أهل الحداثة وإنما هم الذي يتنصلون من مسؤولية الكلمة عند الضرورة ويريدون وأد الشعر العربي ويسعون إلى القضاء على الأخلاق والسلوك باسم التجريد وتجاوز جميع ما هو قديم وقطع صلتهم به.

ـ ونستطيع أن نقرر أن الحداثيين فقدوا الانتماء لماضيهم وأصبحوا بلا هوية ولا شخصية. ويكفي هراء قول قائلهم حين عبر عن مكنونة نفسه بقوله:

لا الله اختار ولا الشيطان ... كلاهما جدار

كلاهما يغلق لي عيني ... هل أبدل الجدار بالجدار

تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

مراجع للتوسع:

ـ «الحداثة في الأدب العربي المعاصر»، مقال مطول للدكتور محمد مصطفى هدارة **مجلة الحرس الوطني** ـ ربيع الآخر ١٤١٠ هـ.

ـ **الحداثة في ميزان الإسلام**، عوض القرني.

ـ **نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد**، د. عبد الرحمٰن رأفت الباشا.

ـ **الأدب المقارن**، د. محمد غنيمي هلال.

أولاً : الاستشراق

تعريف الاستشراق : هو دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون كافرون من أهل الكتاب بوجه خاص للإسلام والمسلمين من شتى الجوانب عقيدة وشريعة وثقافة وحضارة وتاريخاً ونظماً وثروات وإمكانيات؛ بهدف تشويه الإسلام ومحاولة تشكيك المسلمين فيه وتضليلهم عنه، وفرض التبعية للغرب عليهم ، ومحاولة تسويغ هذه التبعية بدراسات ونظريات تدعي العلمية والموضوعية، وتزعم التفوق العنصري والثقافي للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي[1].

والمستشرقون هم : «أدمغة الحملات الصليبية الحديثة، وشياطين الغزو الثقافي للعالم الإسلامي، ظهروا في حلبة الصراع في فترة كان المسلمون فيها يعانون من الإفلاس الحضاري والخواء الروحي وفقدان الذات؛ مما جعل الفرصة سانحة لأولئك الأحبار، والرهبان، وجنود الصليبيين الموتورين كي يثأروا لهزائمهم الماضية، وينفثوا أحقادهم الدفينة»[2].

والمستشرقون يلتقون مع المبشرين في الأهداف؛ فكلهم يهدف إلى إدخال المسلمين في النصرانية، أو رد المسلمين عن دينهم، أو -في الأقل- تشكيكهم بعقيدتهم، كما أن من أهدافهم وقف انتشار الإسلام.

---

1 ـ انظر رؤية إسلامية للاستشراق ـ أحمد عبد الحميد غراب ص ٧.

2 ـ العلمانية ص ٤٥٣.

خصائص الاستشراق : أما خصائص الاستشراق فيمكن إيجازها فيما يلي[1] :

١ـ أنها دراسات ذات ارتباط وثيق بالاستعمار الغربي.

٢ـ أنها دراسات ذات ارتباط وثيق بالتنصير.

٣ـ أنها دراسات تسهم في صنع القرار السياسي في الغرب ضد الإسلام والمسلمين.

وسائل المستشرقين[٢]: سلك المستشرقون لتحقيق أهدافهم وسائل عديدة منها :

١ـ تأليف الكتب، وإصدار المجلات، وإلقاء المحاضرات في الجامعات والجمعيات العلمية عن الإسلام، والقرآن العظيم، والسنة المطهرة، وتاريخ المسلمين وتراثهم.

٢ـ إنشاء الجمعيات والمراكز لخدمة الاستعمار الغربي، ومن هذه الجمعيات الجمعية الآسيوية الفرنسية، والجمعية الآسيوية الملكية البريطانية، والجمعية الشرقية الأمريكية، ومعهد الشرق الأوسط، ورابطة الدراسات الشرق أوسطية.

٣ـ شراء العديد من الصحف المحلية من بلاد المسلمين إضافة إلى المجلات التي يصدرونها.

٤ـ عقد المؤتمرات لإحكام خططهم.

٥ـ تأليف الكتب والموسوعات المليئة بالدس والكيد للإسلام والمسلمين

1 ـ رؤية إسلامية للاستشراق ـ أحمد عبد الحميد غراب ص ٨ـ٩.

2 ـ انظر رؤية إسلامية لغراب وسموم المستشرقين لأنور الجندي.

كدائرة المعارف الإسلامية، وكتاب المنجد.

٦ـ إرسال البعثات، وإنشاء الكليات والمراكز في العالم الإسلامي مستترة باسم العلم والخدمات الإنسانية، وهي في حقيقتها أوكار لتغريب أبناء المسلمين، وترويج لأفكار المستشرقين.

٧ـ جمع الحقائق عن الشرق وهي التي يمكن أن تكون لها أهمية في أوربا وجعلها مجالاً للتخصص العلمي.

خلاصة جهود المستشرقين[1]:

للمستشرقين جهود كبيرة تتلخص فيما يلي:

١ـ الطعن في حقيقة الإسلام وحقيقة القرآن: فقالوا عن الإسلام إنه تطوير محرف لليهودية والنصرانية، أو هو جزء من تولد مجموعة الأديان الشرقية تولد من احتكاك الوثنية العربية بأديان فارس والهند، وإن القرآن من وضع محمد ﷺ أو هو من إملاء راهب نسطوري.

٢ـ الطعن في نبي الإسلام محمد ﷺ: ودليل ذلك أن مارت جليوت ـ وهو من أئمتهم ـ يقول في فصل له منشور في موسوعة تاريخ العالم: إن محمداً ﷺ رجل مجهول النسب؛ لأنه محمد بن عبد الله وكان العرب يطلقون على من لا يعرفون

1 ـ انظر العلمانية ص ٥٥٤ إلى ص ٥٥٧، والولاء والبراء د.محمد بن سعيد القحطاني ص ٤١٣، والإسلام والحضارة الغربية لمحمد محمد حسين الفصل الرابع، والخامس، والسادس، ورؤية إسلامية للاستشراق ص ١٦ـ ٢٤، ومقال د.محمد بن صامل السلمي في مجلة البيان العدد ٢٠ ص ٦٤ـ٦٩، والعدد ٢١ ص ٦٨ـ ٧٦.

نسبه اسم عبد الله.

أوليس منبع هذا هو الحقد الصليبي لا الروح العلمية المتجردة؟ وإلا كيف يشكك في تلك الحقائق البديهية المُسَلَّمة؟ وكيف يقال هذا الكلام ورسول الله ﷺ من قوم لا يعرفون شيئاً كما يعرفون الأنساب، ولا يعتزون بشيء كاعتزازهم بالأنساب؟!

٣ـ القول بأن الإسلام استنفد أغراضه: وهي دعوى تأتي في صور شتى، منها وصف الإسلام بأنه دعوة أخلاقية جاءت لإنقاذ المجتمع العربي من عاداته السيئة كعبادة الحجارة، ووأد البنات، والسلب، والنهب، وشرب الخمر..إلخ.

وتارة بأنه حركة اجتماعية تهدف إلى تغيير البنية الاجتماعية القبلية، بحيث تكون تركيباً اجتماعيا قومياً منحصراً للعرب، إلى غير ذلك من الدعاوى.

٤ـ القول بأن الإسلام طقوس وشعائر روحية: فلا دخل له بأمور الحياة والحكم والحياة الاجتماعية والسياسية.

٥ـ القول بأن الفقه الإسلامي مأخوذ من القانون الروماني: وهي دعوى مركبة على الدعوى السابقة وهدفها إسقاط توحيد الألوهية من جهة، وتهوين شأن الأخذ من القوانين الوضعية من جهة أخرى؛ فما دام الفقه القديم مستقى من أصول أوربية فما المانع اليوم من الاقتباس من القوانين الأوربية كالقانون السويسري أو الفرنسي؟

٦ـ الادعاء بأن الشريعة الإسلامية لاتتلاءم مع الحضارة: وهذه الدعوى تقوم على استغلال الشعور بالنقص عند بعض المسلمين.

٧ـالدعوى إلى نبذ اللغة العربية وهجر أساليبها والدعوى إلى اللهجات العامية: حيث قالوا: إن اللغة العربية غير مناسبة للعصر، وحروفها وتراكيبها معقدة.

والهدف من وراء ذلك معروف وهو الهجوم على العقيدة والقرآن عن طريق مهاجمة اللغة العربية؛ إذ كيف يتصور أن يقرأ الناس القرآن الكريم وهم لا يعرفون اللغة العربية؟

بل إن تراث هذه الأمة من كتب السلف كيف يصنع به؟

ثم إن اللهجات العامية التي يريدون هل هي لهجة واحدة محددة؟ لا بل إن كل قطر له لهجة خاصة، وهذه الدعوى لا يخفى أثرها في تفكيك الروابط بين المسلمين.

وما قام به ولكوكس الذي استمر من عام ١٨٨٢م حتى عام ١٩٣٢م يدعو للعامية ويؤلف بالعامية، وما قام به سبيتا والقاضي ولمور ـ شاهد على ذلك.

٨ـ إثارة ما يسمى بتحرير المرأة: وهي دعوى يهدف من ورائها إلى تحطيم القيم، والأخلاق، والأسر، ونشر الإباحية، والانحلال.

٩ـ التهوين من شأن الحضارة الإسلامية، وتشويه التاريخ الإسلامي: وشاركهم في ذلك تلاميذهم وقد استخدموا في ذلك وسائل عديدة منها:

أـ اختلاق الأخبار، وإبراز المثالب.

ب ـ استخدام المنهج العلماني ـاللاديني- في البحث والنقد.

ج ـ التفسير الخاطئ والفهم العجيب للنصوص.

د ـ الاعتماد على مجرد الهوى في النقد والتحليل للحوادث التاريخية.

هـ ـ عرض جانب من الحقيقة، ووضع الخبر في غير سياقه الصحيح.

و ـ إضعاف دراسة التاريخ الإسلامي، ومزاحمته بغيره.

ز ـ جعل واقع المسلمين في العصور المتأخرة الصورة الحقيقية لتعاليم الإسلام.

ح ـ تجاهل الترتيب الصحيح لمصادر التاريخ الإسلامي؛ فهم يرجعون ـ على سبيل المثال ـ إلى كتب السمر وكتب الأدب كالأغاني، والحيوان، والمستطرف وغيرها من كتب الطرائف التي لم يقصد مؤلفوها تدوين الحقائق التاريخية بقدر ما قصدوا التسلية وتغذيه المجالس بينما نجدهم يغفلون كتباً من أوثق الكتب بما تضمنت من الحقائق التاريخية مثل كتب الحديث، وكتب الفقه التي تذكر السوابق التاريخية التي وقعت من القضاة والفقهاء، وكتب السير والتراجم؛ فهم يصححون ما في كتب الأدب والتاريخ، ويكذبون ما يرويه مالك والبخاري وغيرهما.

١٠ ـ بعث الحركات الهدامة والطوائف الضالة وتضخيم أدوارها: وهذا العمل جزء من تشويه التاريخ الإسلامي؛ فقد اهتموا بالطوائف الضالة كالمعتزلة، وسائر فرق الباطنية على أنها مرحلة من مراحل الفكر الحر أو حرية الفكر.

كما حفلوا في كتبهم ككتب إخوان الصفا، واعتنوا بالشخصيات الضالة كالحلاج، وعبد الله بن سبأ، وعبد الله بن ميمون القداح، والحاكم بأمر الله العبيدي وغيرهم.

١١ ـ نبش الحضارات القديمة وإحياء معارفها: كالحضارة الأشورية،

والفرعونية، والطورانية، وذلك لإحياء النعرات القومية، وتفريق الأمة.

ونجم عن ذلك نتائج خطيرة منها تحسين سمعة الجاهلية، وتمجيد طواغيتها، وقطع صلة الأمة بماضيها الحقيقي، أو على الأقل إشغالها عنه.

نماذج من أسماء أشهر المستشرقين:

المستشرقون كثر، وهم متفاوتون في حماسهم لأداء رسالتهم، ومتفاوتون في آثارهم وأثرهم، ومن هؤلاء على سبيل الإيجاز ما يلي[١]:

١ـ بطرس المحترم: من أشهر رجال الدين المسيحي المعروفين بالعداوة الشديدة للإسلام في أوربا في القرون الوسطى، توفي عام ١١٥٦م وقد قام بدور من أخطر الأدوار في تاريخ الاستشراق والتنصير؛ فهو راهب ولاهوتي فرنسي، ترقى في سلك الرهبنة حتى أصبح رئيساً لدير كلوني في فرنسا.

٢ـ سنوك هرجرونية: مستشرق هولندي تمثل حياته ونشاطاته بكل وضوح العلاقة بين الاستشراق والتنصير.

وقد ولد سنة ١٨٥٧م لأب قسيس، ودرس اللاهوت المسيحي في كلية أنشأت خصيصاً لإعداد القسس، ثم درس اللغة العربية والإسلام، وكانت رسالته للتخرج عن الحج إلى مكة، وقد توفي سنة ١٩٣٦م.

٣ـ صمويل زويمر: وقد عُرف القسيس الأمريكي صمويل زويمر منصراً أكثر مما عُرف مستشرقاً، ولكنه في الحقيقة قد جمع بينهما في نشاطاته العلمية

1 ـ انظر كتاب رؤية إسلامية للاستشراق من ص ٥٤ إلى آخر الحديث عن المستشرقين.

والأكاديمية، ومن أهم إنجازاته تأسيسه لمجلة العالم الإسلامي وهي أخطر مجلة تنصيرية عالمية، وقد رأس تحريرها مدة ست وثلاثين سنة.

٤ـ فنسنك: مستشرق هولندي كان يعمل أستاذاً للغة العربية بجامعة ليدن توفي ١٩٣٩م ينسب إليه أنه صاحب المبادرة إلى مشروع وضع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، ويرجع تاريخ الفكرة إلى سنة ١٩١٦م وقد خرج المعجم في ثمانية أجزاء ظهر الجزء الأول منها سنة ١٩٣٦م والأجزاء الأخرى بعد وفاة فنسنك وظهر الجزء الثامن والأخير سنة ١٩٦٩م وأشرف على إخراج هذا المعجم بعد وفاة فنسنك عدد من المستشرقين، وقد ألفه لتحقيق أهدافه وأراد من ذلك الوصول بسرعة وسهولة إلى الأحاديث واستخدامها للطعن في القرآن والسنة والعقيدة والشريعة وفي الإسلام كله.

٥ـ ريلاند: هارديان ريلاند (ت ١٧١٨م) أستاذ اللغات الشرقية بجامعة أوثرست بهولندا، له كتاب في جزأين اسمه: الديانة المحمدية في جزأين.

٦ـ دي ساسي: سلفستر دي ساسي ت ١٨٣٨م، مستشرق فرنسي تعده بعض المؤلفات من المنصفين؛ لأنه اهتم بالأدب والنحو مبتعداً عن الخوض في الدراسات الإسلامية وإليه يرجع الفضل في جعل باريس مركزاً للدراسات العربية، وكان ممن اتصل به رفاعة الطهطاوي.

ومن الواضح أن مجرد الاهتمام باللغة العربية لا يجعل من أي إنسان منصفاً؛ فجميع المستشرقين يشتركون في هذا الاهتمام، بل إن نشأة الاستشراق في الغرب المسيحي ترتبط بالتنصير.

وقد كان هذا المستشرق حلقة وصل بين الاستشراق والسياسة الفرنسية الخاصة بالمسلمين.

٧ـ إدواردولين: مستشرق إنجليزي عاش في نفس القرن الذي عاش فيه دي ساسي، وقد وصف كذلك بأنه من المستشرقين الذين قاموا بدراسة الشرقيات والإسلاميات بدون تأثير عوامل سياسية واقتصادية أو دينية بل لمجرد حب العلم.

وقد تظاهر خلال إقامته في مصر بأنه مسلم واتخذ له صاحباً مصرياً؛ ليساعده في الاختلاط بالمصريين دون إثارة الشكوك والشبهات حوله.

وله كتاب مشهور من عادات المصريين وأساليب حياتهم نشرته سنة ١٨٣٦م الجمعية الاستشراقية البريطانية المعروفة باسم الجمعية الآسيوية الملكية.

والكتاب يعكس صفات صاحبه هذا وبخاصة صفاته السيئة على الإسلام والمسلمين جميعاً، ولا سيما الجمع بين التدين والشهوانية جرياً على عادة المستشرقين في نسبة النزعة الشهوانية؛ افتراءً على الرسول ﷺ.

٨ـ مرجليوث: إنجليزي متعصب ضد الإسلام ومن محرري (دائرة المعارف الإسلامية) كان عضواً بالمجمع اللغوي المصري والمجمع العلمي في دمشق ومن كتبه (محمد ومطلع الإسلام) وهو من أوائل من شكك في الشعر الجاهلي، وتأثر به طه حسين بعد ذلك.

هذا وقد حقق المستشرقون الكثير من أهدافهم التي يريدون تحقيقها لخدمة مخططاتهم الصليبية اليهودية.

وهم بعيدون ـ في الجملة ـ عن الموضوعية والإنصاف، أما من أراد منهم الحق

وسعى له فإنه لا محالة سيدخل في الإسلام عن رغبة أكيدة وعزيمة صادقة، وكل ما ألفوه من كتب وما نشروه من بحوث لم يكن إلا لخدمة أهدافهم، ولكي يجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق.

«وبالإجمال فالاستشراق في جوهره ليس ظاهرة جديدة، بل هو امتداد لموقف العداوة العقائدية: أي موقف الكافرين بالإسلام من المشركين وأهل الكتاب منذ ظهور الإسلام حتى اليوم ، وهو موقف لإنكار الرسالة والتكذيب للرسول ﷺ وإثارة الشبهات حول الإسلام وحول القرآن والرسول ﷺ بوجه خاص، وذلك لتشكيك المسلمين في دينهم، وردهم عنه،كما قال ـتعالى ـ : ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (البقرة:١٠٥)»[1].

هذا وقد سار على نهج الاستشراق عدد كبير من المستغربين وقاموا بما لم يقم به المستشرقون أنفسهم.

وخلاصة القول أن من تأثر بالمستشرقين لا يمكن أن يكون ولاؤه ولا براؤه خالصين لأمته إلا من تداركه الله برحمة منه.

1 ـ رؤية إسلامية للاستشراق ص ٨٣.

ثالثاً: التنصير

مع بطلان ما يدين به النصارى من عقائد مخالفة للمنقول إلا أنهم لا يألون جهداً في سبيل نشر باطلهم، وإضلال الناس، وصدهم عن الحق، وصدق الله -سبحانه- إذ يقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال: ٣٦).

فما التنصير؟ وما أهدافه؟ وما وسائله؟ وماذا حقق من أعمال؟

تعريف التنصير: هو حركة دينية سياسية استعمارية بدأت بالظهور إثر إخفاق الحروب الصليبية؛ بغية نشر النصرانية بين دول العالم الثالث بعامة، وبين المسلمين بخاصة؛ بهدف إحكام السيطرة على هذه الأمم[1].

والتنصير إنما هو امتداد وإكمال لأعمال المستعمرين والمستشرقين؛ فالمنصرون والمستشرقون والمستعمرون أهدافهم واحدة تقريباً وإن اختلفت الطرق.

أهداف المنصرين: للمنصرين أهداف، يمكن إجمالها فيما يلي:

١- إدخال من استطاعوا من المسلمين في النصرانية: وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ (البقرة: ١٢٠).

٢- رد المسلمين عن دينهم: وهذا هدف ثان فإن لم يحصل دخولهم في

1- انظر الموسوعة الميسرة ص ١٥٩.

النصرانية فلا أقل من زعزعة إيمانهم وتشكيكهم: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا ﴾ (البقرة: ٢١٧).

٣ـ تحطيم عقيدة الولاء والبراء في نفوس المسلمين: وذلك بهدف كسر حاجز النفرة في نفوس المسلمين؛ لكي يذوبوا في المجتمعات، وتضيع شخصيتهم، ويفقدوا هويتهم، ومن ثم يسهل القضاء عليهم.

٤ـ إفساد أخلاق المسلمين وعقولهم: وذلك بإغراقهم بتوافه الأمور، وبالشهوات، وإضعاف هممهم.

٥ـ الحد من انتشار الإسلام.

٦ـ تشتيت المسلمين وتفريق كلمتهم.

٧ـ استهلاك جهود العلماء والدعاة في مقاومة أفكار التبشير[١].

٨ـ القضاء على القرآن ومحوه.

٩ـ السعي المستمر لإبعاد قادة المسلمين الأقوياء عن استلام الحكم في دول العالم الإسلامي؛ حتى لا ينهضوا بالإسلام.

١٠ـ إفساد المرأة وإشاعة الانحراف الجنسي[٢].

أساليب المنصرين ووسائلهم: سلك المنصرون في سبيل نشر باطلهم، وتحقيق أهدافهم طرقاً مختلفة، وأساليب متنوعة ملائمة لكل زمان ومكان، ومن تلك

1ـ انظر العلمانية ص ٥٥٦.

2ـ انظر قادة الغرب يقولون ص ٧٤ـ٧٥.

الطرق والأساليب[1]:

١ـ فتح المحاضن والمدارس والكليات والجامعات في أنحاء العالم الإسلامي.

٢ـ الاهتمام بالريف الإسلامي.

٣ـ ركزوا على إفساد المرأة، حيث رأى المبشرون أن حجاب المرأة يقف سداً منيعاً دون إفسادها وبالتالي إفساد الأجيال المؤمنة، فبذلوا كل جهودهم لإخراجها من حرزها الذي لم يستطيعوا اقتحامه عليها.

ولا شيء يعدل التعليم في ذلك؛ فاهتموا في تعليمها، وتدرجوا في نزع الحجاب، ونجحوا في ذلك أيما نجاح.

٤ـ السيطرة على وسائل التربية والتعليم والتوجيه، وجعلوها وسيلة لنشر سمومهم، وتهوين العقيدة الإسلامية في النفوس، وعرض الشبهات حول كمال وصلاحية الشريعة، أو على الأقل الانحراف بهذه الوسائل عن مقاصدها الصحيحة إلى العبث واللهو مع صرف العناية إلى الأطفال، والنفاذ إلى عقولهم.

٥ـ تحريمُ تحديدِ النسل وتنظيمِه بين شعب الكنيسة، وتشجيعُ تحديدِ النسل وتنظيمه بين المسلمين خاصة وأن أكثر من ٦٥٪ من الأطباء وبعض الخدمات الصحية هم من شعب الكنيسة[2].

٦ـ تشجيع قيام المسارح ونشاط حركة ما يسمى بالفن.

٧ـ مراقبة العالم الإسلامي، والتجسس عليه، وجس نبض الأمة، ورصد

---

1 ـ انظر العلمانية ص٥٥٤ـ ٥٥٦.

2 ـ انظر ما يجب أن يعرفه المسلم من حقائق عن النصرانية والتبشير لإبراهيم الجبهان ص ٢٤.

الحركات الإسلامية.

وقد ثبتت صلة الإرساليات التبشيرية بدوائر الاستخبارات الدولية، وهذا هو والمتوقع مادامت الغاية واحدة[1].

٨ـ التنصير الفردي وذلك عن طريق الدعوة الفردية.

٩ـ التنصير الجماعي وذلك عن طريق الإذاعات التي تبث براجها بلغات عديدة، وعن طريق أجهزة الإعلام المرئية.

١٠ـ نشر الأراجيف في صفوف المسلمين والعمل على إثارة الشبهات بين المسلمين في بعض القضايا كقضية الحرية، وتطبيق الشريعة، والردة، والجهاد، والحدود، وتعدد الزوجات، والميراث، والرق، والطلاق، والمساواة، وهي شبهات واهية داحضة.

١١ـ استغلال الأوضاع السيئة في كثير من بلاد المسلمين كأفغانستان والسودان وأفريقيا عموماً.

١٢ـ العمل تحت غطاء الخدمات الاجتماعية.

١٣ـ إنشاء الكنائس.

---

1 ـ انظر العلمانية ص ٥٥٦.